مُرتفع البَلَسان

هبة جمال

اسم الرواية: مرتفع البَلَسان.

اسم المؤلف: هبة جمال.

المدير العام: نهى محمود سعد .

مدير التوزيع: مصطفى الحلو .

العلاقات العامة: نوسة شوقي.

تجهيز فني: همت العزب.

تصميم الغلاف: محفوظ أحمد .

الدعاية والإعلان: أميرة رمضان.

التصحيح اللغوي: أولي النهى للتصحيح اللغوي/نهى محمود .

الطبعة الأولى: ٢٠١٧

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية: ٢٠١٦/٢١٧٢٩

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٥٣٢٠-٦-٧

كل الحقوق محفوظة

في مصر والعالم لمؤسسة

الجيزة/ ٨ ش عبد العزيز الشافعي

مريوطية فيصل.

موبايل / ٠١٠١١٨٩٣٥٣٢

البريد الإلكتروني:

Nohamahmoud.171186@gmail.com

Alshahdpublishing2016@gmail.com

إهداء

إلى كل من وعمني،

أهلي..

أساتذتي..

رفيقات دربي..

شكراً لكم،

أهدي إليكم كلماتي محملة بعبير الزهر وقطيرات الندى..

الفصل الأول: الصعود إلى البَلَسان.

الفصل الثاني: المغامرة الكبرى.

الفصل الثالث: غضب وكبرياء.

الفصل الرابع: اعتذار.

الفصل الخامس: اعتراف وخجل.

الفصل السادس: حزن ورحيل.

الفصل السابع: استقبال باهر.

الفصل الثامن: سعادة وأمل.

تدور أحداث هذه الرواية في الأندلس قديمًا

الفصل الأول

الصعود إلى البَلَسان

الفصل الأول
الصعود إلى البَلَسان

تجلس الجدة على كرسيها قرب المدفئة ليلًا لتتذكر ما مضى من حياتها، وكالعادة كانت تُجْلِس بجوارها أحفادها لتروي لهم الحكايات.

كان للجدة أسلوبها الخاص السلس الساحر في جذب الأسماع والأذهان، وكان لديها عادة جميلة وهي بدء حديثها بحكمة سمعتها أو قرأتها في كتبها، حيث أنها كانت تحب القراءة والاستماع إلى الأساطير والروايات القديمة نظرًا للطبيعة التي نشأت بين أحضانها، فهي ترعرعت في بيئة باهرة حيث الجمال والأشجار والأنهار إنها في الأندلس حيث البهاء والجاذبية، فكانت تحيا حياة رغدة مدللة ولدت لعائلة ثرية يهتم بها الجميع تعلمت الكثير من والدتها و مربيتها نَمَّى ذلك عندها هواية القراءة في سن مبكرة.

و عندما كانت إيثار – وهو اسمها – في الثامنة من عمرها تصعد إلى أحب مُرتفع إلى قلبها في إحدى حدائق والدها فرحة مُهللة بطبيعته الهادئة وأزهاره المتفتحة تلعب وتركض كما لو كانت حبيسة البيت مُطْلقة السراح لتوها.

أسمت إيثار المرتفع بمرتفع البَلَسان نظرًا لزهرة البَلَسان التي نمت فيه متفردة – مختلفة عن باقي الأزهار.

وكان على هذا المرتفع صخرتان مائلتان على بعضهما البعض وأمامهما زهرة من أزهار البَلَسان كانت زهرة وحيدة بين هاتين الصخرتين فجذبت هذه اللوحة الرائعة نظر الفتاة وأحبت هذا المرتفع من أجل هذه الزهرة التي ذكَّرتها بنفسها.

إيثار كانت وحيدة ليس لها أشقاء ولا أصدقاء فهي فتاة مُنطوية وكانت هذه هي المشكلة التي أرَّقت والديها على الرغم أن لديها مقومات الانخراط بين الناس، فأصبح ذلك الانطواء بلا مبرر مُعْتبر عند والديها، لدرجة أنها كنت في

الزيارات والمناسبات تتجنب مَنْ حولها وترتكن إلى مكان صغير بحيث لا يُحدثها فيه أحد.

وبالرغم من كونها فتاة جميلة وذكية وذات وجه صبوح وأدب رفيع إلا أن انطوائها في تلك الفترة من وجهة نظرها يرجع إلى أنها كانت لا تستطيع التحدث بالصورة التي ترتضيها، حيث أنها كانت تتكلم مسرعة – فتتلعثم – وتتوقف لبرهة ثم تسترسل من جديد، كانت تريد أن تتفوه

بأشياء كثيرة في وقتٍ قصير وبالتالي تتلعثم ويَعْقُب تلعثمها برهة من السكون.

فأصبحت لا تتكلم إلا إذا طُلِبَ منها، وبالتالي أثر ذلك بالسلب عليها، وبعد أن لاحظت هذا في نفسها أرادت أن تخرج من هذه الدائرة المغلقة فأحبت أن تتخذ صديقة لها تؤنس وحدتها وتحدثها بما تشاء.

فأخذت تبحث كثيرًا حتى وجدتها، عندما أدركت أن الصداقة تكمن في معناها فاتخذت إيثار زهرة البَلَسان صديقة لها، تُحدثها عن كل شيء، ما يُفرحها وما يُبكيها وما يجول بخاطرها، وهكذا...

كانت إيثار في العاشرة من عمرها حين رأت البَلَسان، فكانت تأخذ مُهرتها الفيروز لتمتطيها وتركض بها كما لو كانت فارسًا بسيفٍ بتار، تخترق الأريج مُسرعة إلى البَلَسان، فترى وجهها الصبوح أكثر بهجةٍ وسرور.

وكان طريف وهو راعي الفيروز يُجهزها لها كل صباح لتتوجه بها إلى مرتفعها، فكان حبها لهذه الزهرة وتأثير الزهرة عليها غريب في بعض الأحيان، فحينما تغضب تذهب مسرعة إليها وعندما تصل وتراها فكأن شيئًا لم يكن.

وكانت تتغنى دائمًا بأُنشودة مُفْتَخِرة فيها بذاتها ومتفاخرة بكلماتها مطلعها

أنا بنت الأكرمين وإنني
بدر المُحيا وزهرة النسرينِ
كاللؤلؤ المكنون وإنني لبهيةٍ
وضَّاءة كزهر الياسمينِ

مرت سنوات وأصبحت إيثار تبلغ الخامسة عشر من عمرها فأرادت أن تُثبت ذاتها في هذه السن فكانت تسعى إلى أن تُبْرِز رأيها وتُبدي وجهة نظرها في عدة أشياء لتشعر بأن لها كيانًا مستقلًا مُعتبرًا في هذا البيت الكبير ولكن هذا لم يكفها برغم أنها تأثر القلوب حين تتحدث وتلفت الأنظار والعقول

بحديثها، ولكن برغم ذلك فإن الجزء الطفولي في شخصيتها لم يكن مُشبعًا بعد، فأرادت أن تخوض في أمرٍ جديدٍ – شيءٌ لم تفعله من قبل، أرادت أن تُصبح مُغامِرة مثل اللواتي كانت تسمع عنهن من مربيتها مرمرة فأحبت أن تكون مختلفة عن من حولها ولو بالقدر اليسير، وتخرج من الهالة المحاطة بالفتيات وقتئذٍ، إيثار بطبيعتها متمردة متكلمة مفعمة بالحيوية والنشاط ترفض الروتين المفروض عليها بطبيعة الحال.

فأخذت تفكر وتفكر حتى توصلت إلى أن تتخطى أسوار البيت الكبير والحدائق الغناء لأول مرة دون أبويها ومربيتها، فأرادت أن تصيد حيوانًا كي تُنمي لديها موهبة الرماية حيث أنها كانت تضع الدُمي بجوار بعضهم البعض وتصوب عليهم بشوكة – وبعد تفكير عميق جهزت ورتبت أشياءها لصيد الصيد الثمين.

فأخذت فرع من شجر الزيتون حتى يكون قويًا شديدًا صنعت منه شيئًا صغيرًا يُشبِه الرمح وجلبت جراب لوضع صيدها الثمين به.

وبعدما تناولت إفطارها استأذنت أمها كي تخرج وتفعل ما كان في مخيلتها ولكن قوبل طلبها بالرفض القطعي وقالت لها انتظري حتى يأتي أباكِ فنخرج جميعنا في صحبة.

وبالطبع أغضب ذلك الفتاة وقررت أن تأخذ مُهرتها لتتنزه بها في الحديقة وأخذت تبتعد وتبتعد متجهة إلى الباب الغربي وعلى حين غفلة من والدتها خرجت بالفيروز مسرعة قبل أن يلمحها أحد.

الفصل الثاني

الطغامرة الكبرى

الفصل الثاني
الطغامرة الكبرى

أخذت إيثار تتنزه في الحقول بالقرب من البيت وهي في سعادة غامرة تبحث بعينيها الكحيلتين عن شيء تصيده وفجأة رأت أرنبًا ذو فرو أبيض فترجلت بهدوء واقتربت، فحدقت نظرها على الأرنب وصوبت عليه فأصابته، وعندما اقتربت وجدته يأن كما لو كان يبكي من الألم.

فلما وجدت الدماء تخضب فروه الأبيض - أخذت تبكي وتصيح وتعتذر له عن الأذى المُلحق به، وفي نفس الوقت سمع بُكائها رجل كان يمر على مقربة منها فأسرع نحوها، وسألها ما بالك يا ابنتي تبكين؟ فقالت له لقد أجرمت أيها الطيب، أصبت هذا الأرنب؟ كنت أعتقد أني حين أصوب عليه فسوف يموت في الحال لكنه أخذ يأن كأنه يبكي، ثم

استرسلت وقالت: أنا أريده – أريد هذا الأرنب لا تتركه يموت أرجوك، فقال لها اهدئي يا بنيتي فالأمر يسير.

فشرعت في الدعاء بمنتهى البراءة "اللّٰهم اشفي جرحه واغفر لي فعلتي يارب العالمين".

وبالفعل رأى العم عمر وهذا اسمه جرح الأرنب فوجده بسيطًا سطحيًا للغاية فضمد له الجرح وأطعمه وسقاه، شكرته إيثار وسألته كيف جاء إليها؟ أكان صوتها مرتفع إلى هذا الحد؟ فقال لها يا ابنتي لقد كنت في طريقي لزيارة صديق قديم وسمعتك تبكين فأسرعت لتفقدك، فشكرته ثانيةً واسترسل هو قائلًا لقد كنت أعيش هنا منذ زمن ثم سافرت إلا شذونة وها أنا عُدُّت ثانية فأردت أن أرى أصدقائي وأهلي، رحبت به وعرفته بنفسها وفرح بذلك كثيرًا لأنها ابنة صديقه خالد والذي كان في الطريق لزيارته.

ثم بعد ذلك حمل العم الكريم الأرنب ووضعه في الجراب الذي كان معها وتابعا السير حتى وصلا إلى البيت، فكانت

أمها في انتظارها وكان القلق يقتلها من أجل ابنتها فحين رأتها صرخت بوجهها وقالت أين ذهبتِ؟ لقد قتلتيني بحثًا عنكِ ألم أرفض ذهابك؟ فحكت لها ما حدث مفصلًا وأخبرتها بمن ساعدها وقام بمرافقتها للمنزل.

وفي هذا الوقت تعالت الضحكات في أسقل البيت وكلمات الترحيب الحارة من السيد خالد ذو الخُلق النبيل للسيد عمر ذو الأصل الكريم، وأخذا يتحدثان لبضع ساعات عن ذكرياتهما معًا وأحوالهم وطبيعة أعمالهم وأخذ الحديث عن الأسرتين أغلب الوقت فعلم السيد عمر أن صديقه لم يُنجب

غير هذه الفتاة التي رآها، وعلم خالد أن عمر تزوج من ابنة عمه وقد أنجبت له ثلاثة من الأبناء وتوفت إثر مرض ألمَّ بها في الشتاء قبل الماضي ومنذ ذلك الحين وهو يُصفي أعماله الواحد تلو الآخر، فمنها جزء في شذونة والأخر في طُلَيْطِلة ليعود للأندلس مسقط رأسه من جديد.

أتى عمر للأندلس بُصحبة سارة ابنته وهي بعمر إيثار، وترك بشذونة ولديه ليُصفُّوا ما تبقى لهم من أعمال على أمل اللحاق بأبيهم فيما بعد، مر الوقت سريعًا واستأذن الضيف وانصرف على وعد منه بزيارة أخرى هو وأسرته.

منذ أن التقيا الرجلان ثانية عاودا أدراجهما فأصبحا صديقين أكثر مما كانا عليه في الماضي، أما بالنسبة للفتاة فقد احتفت بحيوانها الصغير بعد موافقة والديها على وجوده بالبيت فأخذت تعتني به وتصطحبه معها إلى المرتفع.

وفي يوم من أيام الجُمع استيقظت الفتاة متأخرة على غير العادة فجهزتها مرمرة برداء ثلجي كأنها نجمة مُتلئلئة في سماء الكون، نظرت في مرآتها وأنشدت:

أنا بنت الأكرمين وإنني
بدر المُحيَّا وزهرة النسرينِ
كاللؤلؤ المكنون وإنني لبهية
وضَّاءة كزهر الياسمينِ

فسمعتها والدتها وعقبت مبتسمة:

أيا ابنة الأكرمين تمهلي
فما لكِ من نسبكِ حيلةٍ
ويا ابنة الأكرمين تذكري
أن الحياء للنساء فضيلةٍ
يا بدر المُحيَّا تجملي
بطيبِ اللسانِ والأخلاق الكريمةِ

استأنست ايثار بكلام والدتها وتهللت فرحًا برؤيتها وقبلت يدها على النُصح الذي راق لها، تناولت افطارها واستأذنت والدتها وخرجت للفيروز مسرعة برداء ثلجي ووشاح وردي وقبل خروجها سمعت صوت والدها على غير العادة بهذا التوقيت، فذهبت لتراه وتُقبل يداه، فوجدته يستقبل صديقه وابنته مُرحبًا بقدومهما فألقت التحية عليهم وتعرفت على سارة وذهبا معًا لتُعرفها على والدتها، فدخلت إيثار لوالدتها لتُعرفها بسارة مبتسمة قائلة:

السلام عليكِ يا أماه، هذه سارة ابنة عمي عمر صبوحة الوجه؛ بهية الطلة؛ فرحبت بها الأم قائلة:

مرحبًا بشمسٍ أنارت بيتنا أتمنى لكما يومًا سعيدًا وتعارفًا طيبًا وصداقة تدوم، فمكثوا قليلًا مع الأم واستأذنا للتنزه بالحديقة، وبالفعل خرجا معًا وتجاذبا أطراف الحديث.

تقول سارة: لم أكن أظن أن الأندلس أجمل من وصف أبي، فطبيعتها ساحرة وبيوتها عامرة وطُرقها منيرة زاهرة، وأردفت إيثار سائلة مبتسمة: وناسها؟

قالت سارة ضاحكة: وناسها أهل الكرم والأخلاق العالية.

تحدثت سارة عن شذونة وطُلَيْطِلة وروعة الطبيعة فيهما وحدثتها عن والدتها ومدى تعلُقها بها وتأثُرها بعد وفاتها، وتحدثت عن أخويها اللذين هونا عليها أيامًا صعاب، تجاذبا الحديث وبدأت تحكي إيثار عن الأماكن المُحببة لها وفي أي شيء تقضي وقتها، وقاطعتهما مرمرة قائلة:

يا فتيات الغداء في انتظاركن فلا تتأخرن، وبالفعل ذهبا لتناول الغداء فكثرة التجوال أشعرتهما بالجوع ، ومر اليوم على خير ما يرام وذهبت سارة ووالدها بانقضاء اليوم على وعد

مـن خالـد بـرد الزيـارة في القريـب لمنـزل صـديقه لتوطيـد الصلات ولمزيد من التعارف بين الفتيات.

الفصل الثالث

غضب وكبرياء

الفصل الثالث
غضب وكبرياء

مرت شهور بين زيارات متبادلة ومُكاتبات، وأصبحت الفتاتين من مجرد زهرتين جمعتهما صداقة أبويهما بالتعارف – إلى صديقتين، وللمرة الأولى تتواصل إيثار وتندمج مع أحد من أقرانها.

ولم تغفِل إيثار الحديث عن المرتفع وبِلْسانه بل أخذت سارة لتُريها كنزها الصغير، وبغض النظر عن استغراب سارة في باديء الأمر، إلا أنها تقبلت فكرة صداقة مخلوق لا يحمل الصفة البشرية.

وبالنسبة للأم فقد احتضنت سارة لاعتبارات كُثر، كحداثة سنها ويُتْمِها من جهة، ومن أخرى لرؤيتها تغيُّرًا ملموسًا في واقع ابنتها بعيدًا عن النبات والحيوان.

وفي تمام السنة تسلم عمر رسالة من شذونة وأخرى من طُلَيْطِلة يُفيدان بقرب تصفية أعمالهم بشكل نهائي مع تذييل اعتراض مُغلف بوجهة نظر من ابنه البكر .

شاور عُمر صديقه خالد في فحوى رسالة ولده ثم أرسل إليه بسرعة الحضور مع العُزُوف عن تصفية البقية الباقية إلى أن يتباحثا في الأمر من جديد.

وتابع الصديقان أعمالهما كلٌ في مجاله لفترة مع تبادل الزيارات وتوطيد العلاقات وأخذ المشورات.

استيقظت إيثار وتناولت إفطارها بعد رؤية والديها وذهبت للمرتفع بصحبة مرمرة لِلُقْيا سارة، وإذ بها تُفاجئ بعدم وجود الفيروز ولا الأرنب، فأوكلت مرمرة بتنبيه طريف كي لا يُهمل مرة أخرى في تجهيز مهرتها، وإذ بطريف نفسه يؤكد على تجهيزه واحضاره لهما منذ دقائق!

تركت إيثار مرمرة تبحث عن الفيروز وذهبت منفردة للقاء صديقتها ومشت إلى المرتفع فلم تجد سارة لكنها

وجدت الفيروز فاحتضنتها مبتسمة كأنها لم تراها منذ زمن لا من ساعات معاتبةً لها – كيف تأتين إليها دوني؟ إنها زهرتي يا فتاة، مُداعبة غرتها البيضاء.

وفجأة شحب لونها، فقد لمحت شابًا يقف في شموخ الجبال على صخرة متأملًا ما حولها، فصرخت به قاطعة لتأمله وهي تقول ابتعد عن صخرتي وزهرتي أيها البائس العابث كيف تجرؤ وتصعد إلى مرتفعي، والتف حوله ليتفقد مصدر الصوت بهدوء شديد، وصفته هي بعد ذلك بالبرود، وحين سمعها تقول ذلك نظر إليها مُتعجبًا، فنزل من على الصخرة ونظر لها نظرة قاسية معاتبًا فيها إياها، ودار بخلده للحظات من تكون هذه التي نهرتني دون أدنى معرفة مُسبقة؟ فسأل نفسه أهي فتاة مريضة تهذي؟ ولكن ما لهذا الجمال بالهذيان! وما لهذا الصوت العذب أن ينبع عن مرض! ولكن ما قصة هذه الفتاة السليطة.

فقال في نهرٍ لها:

لماذا أنتِ منفعلة هكذا؟

أكل هذا لمجرد صعودي على صخرة لأشاهد ما حولها؟!

فقالت له محاولة قطع حديثه: كيف تجرؤ؟

وقال هو قاطعًا لكلامها : لماذا أنتِ سليطة اللسان هكذا؟

إنني لو قلت أنكِ قليلة الحياء لكان ظُلمٌ لكِ، بل إنك عديمة الحياء والفائدة.

ألاتعرفي من أنا أيتها الثرثارة؟!

أنا سليم بن الجمال يا هاذية، فعندما سمعت منه هذه الكلمات بكت بشدة، فأراد حينها أن يعتذر لها على فورة غضبه، ويوضح أنه لم يكن ينتوي توبيخها بمثل هذه الكلمات ولكن ردًا لكرامته وثورةٍ لرجولته.

فقالت: أنت لا تعرف من أنا أيها الأحمق؟!

أنا ابنة؛ فقاطعها سليم وقال:

لا أريد أن أعرف من تكوني؛ ولكن الذي أعرفه وأنا على يقين منه، أنكِ فتاة فشل أبويها في تأديبها وتعليمها ما يجب أن تكون عليه الفتيات، فبكت أكثر وصرخت فيه من غيظها لأنها لم تستطع أن ترد عليه فركضت من أمامه متجهة إلى المنزل فقابلتها والدتها في الحديقة، كانت تتسلم اعتذار سارة عن الميعاد من خادمتها، فسألتها ماذا ألمَ بكِ؟!

فبكت وركضت إلى حجرتها، فسأل عنها والدها كي تودع العم عمر فصعدت أمها لتحضرها؛ فنزلت دونها وأخبرتهم بأنها متعبة وستستريح قليلًا.

ودع خالد صديقه عمر وسليمان ولده على وعد منهم بإعادة زيارتهم في الغد جميعًا.

صعدت الأم لتتفقد حال بُنيتها وإذ بصوت إجهاشها بالبكاء مسموع من الخارج، فدخلت أمها مذعورة تسألها ماذا حدث؟ ولما كل هذا البكاء؟

فحكت لها ما حدث دون أن تُخبرها بما قالت.

فاستعجبت والدتها من الموقف ومن وجود الفيروز بالمرتفع دونها أكثر من وجود الشاب نفسه، وحاولت تهدئتها ولومها في نفس الوقت، فطالما وجدت الفيروز دون سارة فـ لتعود أدراجها.

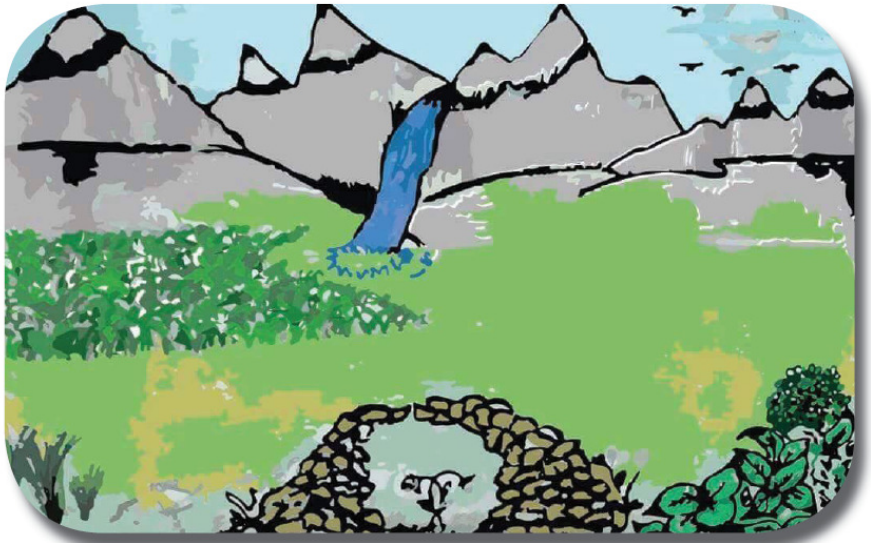

رسم: شجن شحادة

وفي اليوم التالي بوقت الأصيل حضر العم عمر وأسرته فجلسوا واحتسوا الشاي وسألت سارة عن إيثار فأوصلتها

مرمرة إلى غرفتها فوجدتها على سريرها تبكي وتُحدث نفسها من قسوة ما سمعته من هذا السليم فحين سألتها ماذا ألم بكِ؟ قصت لها ما حدث، وتعجبت سارة هي الأخرى من الموقف، المهم هدأتها سارة وذهب معًا ليلتقيا بمن في انتظارهما بالأسفل.

دخلا معًا وسارة تضحك وتمازحها قائلة: أصبحت عيناكِ من فرط البكاء كحبات الطماطم على شجرها، فضحكت إيثار مرغمة مما قالته سارة.

فدخلت وألقت التحية على الجميع ورحبت بعمها عمر وقدم لها ابنه سُليمان فرحبت به واستأذنت الفتاتين للخروج لحديقة البيت، وعندما خرجا ركض تجاههما أرنبها فحملته وسارت به والصمت يخيم عليهما فأخذت سارة في الكلام معها وفجأة لمحت الفيروز يداعبها ذلك الشاب الذي نهرها بالأمس، فجن جنونها وارتسم الغيظ على وجهها، وحين اقتربت منه قالت له: أنا ثرثارة عديمة الحياء والفائدة؟

وهمت بسؤاله كيف جئت إلى هنا؟ ألم يكفك إهانتي بالأمس وقتل صديقتي، فارتسم الكدر على وجهه مع بقاء عدم استيعابه للأمر قائم، وكل هذا وسارة تشاهد في تعجب دون أن تنطق ببنت شفه!

فكادت أن تسترسل إيثار في كلامها فقاطعها هو ناظرًا إلى صديقتها سائلًا إياها من هذه الثِرْثَارة؟

فكادت إيثار ثانية أن تجاوبه بكدر يفوق كدرها الأول بمراحل، فارتسم الغضب على وجهه ناظرًا إلى أخته سائلًا إياها بحسم من هذه يا سارة؟

فقالت: هي إيثار ابنة العم خالد صديق أبي، ومن نحن ببيته الآن، نظرت إيثار لسارة وهي تُجيب أخيها وتشير لها قاصدة سؤالها من هذا دون نطق، فأجابتها هذا أخي سليم، انصرفت إيثار وهي تستشيط غضبًا، لم تستطع النطق وكأنها ابتلعت ألسنة العالم أجمع، ركضت سارة خلفها منادية لها

بصوتٍ مسموع، وبوقت خروج والدتها فأوقفتها وسألتها:

ما بها ثانية؟ فلم تُجبها، فأجابتها سارة بأن الشاب الذي حكت لهما عنه هو أخيها، ولم تعلم سارة ما الذي حدث ليصل الأمر إلى حد بكائها بهذا الشكل!!

فلاحظ خالد حركة غير طبيعية بالخارج فخرج ليتفقد الأمر فعلم، فأدخل الفتيات وأرسل إلى سليم ليسمع منه ما الذي حدث لكل هذا، فلما دخل وقال ما عنده مفصلًا مردفًا متعجبًا أنها اتهمته منذ قليل أنه قتل صديقتها!

فقالت: لقد كاد أن يقتل صديقتي.

فقاطعها هو كدت أم قتلتها! ومن هي صديقتك التى قتلتها أو كدت أن أقتلها وأنا لا اعرفها بالمرة؟

أين كانت؟

أم أنكِ ترين ما لا يراه البشر؟

متهكمًا بما تقول.

فقالت له غاضبة كانت تحت قدميك، هل علمت الآن أين كانت؟!

فقال هو مستنكرًا: تحت قدمى؟!

هل تريدي أن تصيبيني بالجنون؟

فقالت هي معقبة على قوله وفي سخرية بالغة، جنون! هل تريد أن تقول بأنك عاقل؟

فاستمرا في مشادة كلامية طويلة ومن حولهما ينظران إليهما في ذهول مما يحدث، فمن المفترض أن لقائهما هو الأول!

فقال خالد والد إيثار في صوت مرتفع نريد أن نفهم ماذا يحدث، ما هذا الهراء الذي تهذيان به؟

أطفلين يتشاجران على قطعة حلوى؟ نريد أن نفهم وكفى شجارًا.

فحكت هي من جديد دون أن تذكر أنها نهرت سليم وعنفته فقال والدها: هل انتهيت يا ابنتي؟

فقالت: نعم يا أبي.

وسمح لسليم بالتحدث فقال له ما قالته وما هو قاله وما مقصده من نهرها.

الفصل الرابع

اعتذار

.....

تحدث سليم بعد أن أُذِنَ له فقال: إنني كنت قد استأذنتكما بالأمس لأتنزه بالحديقة فوجدت حصان فركبته، ثم...

فقطعت حديثه وقالت بأسلوب طفولي للغاية: وأخذت حصاني أيضًا يا لك من...

فقاطعها والدها وقال لها: ليس هذا من آداب الحديث يا إيثار اعتذري على الفور.

فرمته بنظرة تود فيها قتله فلحقها هو وأكمل ما بدأه، وبعدما امتطيت حصانها - قالها وهو يرمقها بنظرة بها ابتسامة - أوصلني إلى بقعة جميلة فوقفت على صخرة مرتفعة كي أرى

المكان جيدًا، وإذ بفتاة تصرخ بي وتصفني بالحماقة والعبث.

فسأل خالد ابنته هل هذا ما حدث؟ فقالت نعم يا أبي وقف على الصخرة وأمامها البَلَسان ولو كان تحرك قليلًا لقتلها، وأخذ من بالغرفة ينظرون إليها ويضحكون بينما سليم وقف متعجبًا لما تقوله وهي جالسة تشاهدهم واستشاطت غضبًا لضحكهم، فقالت لهم لست بالهاذية ولا بالمريضة هذه زهرتي على مرتفعي سُمِّي بمعرفتي من صعد إليه عليه أخذ إذني، فتفهَّم سليم وقدم لها اعتذاره ليُنهي الأمر.

فقالت والدة إيثار: ألا تعتذري أنتِ الأخرى على ما قلته، فقالت لن أعتذر، ونظرت إليه وقالت: ءأنا قبيحة؟ صبرًا أيها الهازي.

فعندما سمع منها هذه الكلمات ترك الغرفة على الفور متجهًا إلى الحديقة ، فعنفها والدها وأمرها أن تذهب وتعتذر،

وبالفعل خرجت إيثار وخلفها سارة لتجد سليم ممسكًا بسهم نازعًا ريشه من فرط غضبه.

فذهبت في خطوات بطيئة للغاية تدفعها سارة من خلفها وتقول اذهبي اذهبي فلن يأكلك، فقالت لها ايثار وهل تعتقدين بأنني خائفة منه؟ فابتسمت سارة وقالت لها ضاغطة على كفها – ينبغي لك الخوف الآن فقد أوصلتيه لإتلاف سهامه، فتجهم وجه إيثار لثوانٍ وقالت لها: إذًا فـ لتبقي بجواري –وامسكت بيدها وأبت أن تفلتها، وعندما وصلت إليه بالحديقة قالت له بصوت جامد جدًا: أيها السليم – فلم يجب.

فقالت: أنت يا سليم – فلم يجب.

فتركت يد سارة مضجرة ووقفت أمامه وقالت: لماذا لا تُجِب؟ أهذه مُعطَّلة! مُشيرة إلى أذنها .

فنظر إليها بغضب شديد ولم ينبس ببنت شفة فغضت

بصرها مترقبة متوجسة من ردة فعله ووجهت وجهها نحو قدميها وقالت أعتذر لك عما بدر مني.

ولكن وفي تلقائية وتسرع شديد قالت له؛ لولا أبي وإكرامًا لأبيك واعتذارك لما كنت اعتذرت لك أبدًا، وأدارت وجهها متوجهة إلى الداخل فاعترضها وقال لها: لم أقصد أن أصفك بالقبح ولكن كي أضع حدًا لما قلتِ، ما كان ينبغي لكِ أن تُخاطبي أحد هكذا حتى ولو كان مخطئًا ، وأردف قائلًا: وبالطبع لستِ بقبيحة المنظر فأنتِ أجمل ما رأت عيناي.

أخجلتها كلماته ونظرت لسارة، فانتبه والتفت فوجد أخته وقال لها؛ ما بالكِ تهبطين على النخل كالبروق في ليلة شتاء مطيرة، فنظرت إليه سارة مُعقبة، وما بالك لامع العينين مُبتل الجوانح كفهد راكض في غابة غزلان فريدة.

وقطع تراشقهما بالكلمات خروج والدهما بصحبة صديقه يودعان بعضهما ثم انصرفوا، مع وعد من سارة بزيارة إيثار يومًا على المرتفع.

وفي اليوم التالي ذهبت إيثار للمرتفع بصحبة الفيروز ماشية تركض أمامها تارة وأخرى تحدثها إلى أن وصلت للمرتفع فوجدت طفل يلعب بماء الشلال كما لو كان هاربًا من أبويه يلتفت يمينًا ويسارًا كما لو كان مُنتهزًا فرصة وجوده منفردًا ليفعل ما يحلو له، فذهبت إليه محاولة مُلاطفته، ففزع لوجودها وتعثرت قدماه وسقط فابتل بالكامل، ساعدته على القيام ومع الحديث تعارفا وجفت ملابسه، وعلمت أنه من قرية قريبة من المرتفع ولا يعلم أبويه بخروجه منها، فمكث معها قليلًا تُلاعبه وتضاحكه إلى أن أتت سارة مُرحبةً بضيف

المرتفع الجديد، مرحبًا سُنيْبِل كيف حالك، مع تعجب إيثار سائلة إياها هل تعرفيه؟!

فقالت سارة: نعم فهو ابن طبيب القرية النيسابوري التي بالجوار، فتهلل الفتى بترحابها له وقالت إيثار: ألم تقل بأن اسمك سنَّانُ؟

فقال: بلى.

فقالت: فما بل سُنَيْبِل إذًا؟!

فضحكت سارة وقالت هذا اسم أطلقته عليه لصغر حجمه ورشاقته فهو كسُنبلة قمحٍ تتمايل مع الريح وتميل حيث يميل.

مر الوقت في اللعب معه، جفت ملابسه ونزل لقريته مخافة التأخير، وبعد الظهر أتت أنوار خادمة سارة لتصطحبها

للمنزل فقد استدعاها والدها، وبالفعل استأذنت من إيثار وذهبت لدار أبيها تُلَبيه، وجلست إيثار وخلفها الفيروز تتأمل الأزهار وتنظر للبَلَسان وتتمتم:

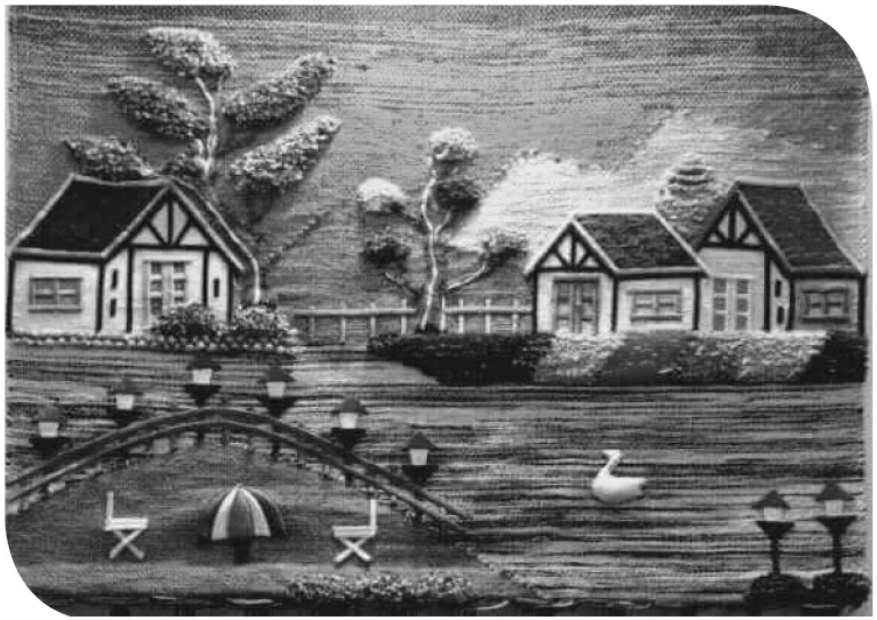

أنا بنت الأكرمين وإنني
بدر المُحيا وزهرة النسرينِ
كاللؤلؤ المكنون وإنني لبهيةٌ
وضَّاءة كزهر الياسمينِ

وبعدها صمتت قليلًا وقالت:

أقــول بــأنني بــدر المحيــا

فــلا محيــا أبهــى مــن محيــاه

صمتت طويلًا ثم همت بالذهاب للبيت، فوجدت سارة في الطريق ساقطة على الأرض تبكي، فركضت إليها تستفسر منها عن الذي حدث لها، فقالت وأنا في طريقي إليك ثانية تعثرت قدمي وسقطت، فساعدتها على النهوض وهي تقول: سنذهب للبيت أفضل لتراكِ أمي ونطمئن عليكِ.

وعندما نصل سنرسل مرمرة إلى منزلكم لتُبلغهم بأنكِ معنا اليوم، وبالفعل سارا ببطءً شديدًا، فقد تورم كاحل سارة جراء السقوط ولم تستطع الضغط عليه كما يجب.

وبالفعل وصلا للبيت واستضافتها إيثار بغرفتها وأبلغت والدتها فصعدت لترى ما ألم بسارة، فوجدت كاحلها متورم فأرسلت طريف ليأتي بالطبيب وأرسلت مرمرة لمنزل عمر والد سارة لتبلغهم بالأمر.

وأتى الطبيب واستقبلته الأم، وبنفس التوقيت أتى سليمان معتذرًا عن عدم قدوم أبيه نظرًا لسفره المفاجيء، فصعد لأخته وتابعها الطبيب وأمر بألا تطأ قدمها الأرض لأسبوع حتى تطيب وترك لها الدواء المناسب وانصرف.

اطمأن سليمان على سارة واستأذن ومضى، ومكثت إيثار مع سارة بالغرفة تُضاحكها إلى أن أتت مرمرة بالغداء فبدأ كلًا منهما بالحساء واستطردت إيثار وسألت عن السبب الذي حمل والد سارة على السفر فجأة، فأجابتها سارة بأن أعماله هناك لابد لها من متابعة وهي لا تعلم ماذا حدث تحديدًا في شذونة ليسافر والدها بهذه السرعة ولكن سوف تعلم حين يعود سليم، فقالت إيثار يعود من أين؟ فردت سارة من شذونه فقد سافر مع والدى.

فصمتت إيثار لبرهة ثم قالت، أتمنى أن يكون قد قبل اعتذاري، فقالت سارة من المؤكد أن يكون تقبله فأخي نبيل الطبع كريم الأخلاق، فابتسمت إيثار – وعقبت – جميل.

وبعد الغداء تركت إيثار سارة لتستريح قليلًا وذهبت لتمكث قليلًا مع والدتها تُحدثها وتسال عن والدها الذي لم يأتي إلى الآن، وبالفعل نزلت ووجدتهما يتناولان الغداء فمازحتهما واستأذنت، فخرجت للحديقة تتأملها فوجدت أرنبها فظلت تلاعبه وتلاطفه حتى قاربت الشمس على المغيب، فتركته وصعدت لسارة تتفقدها.

ومر أُسبوعين قضتهما بين رفقة سارة ومتابعة طبيبها وبين الفيروز، شُفيت سارة تمامًا بعد أُسبوعين وكان يأتي لها سليمان يتابعها ولم تتركها والدة إيثار تذهب لمنزل والدها مع أخيها بل مكثت في ضيافتهم إلى أن عاد أبيها.

الفصل الخامس

اعتراف وخجل

.....

الفصل الخامس
اعتراف وخجل

ولما عاد عمر من سفره بعد شهر وعلم ما حدث ذهب ليشكر خالد على حسن ضيافتهم لابنته وبالفعل ذهب وعاد لبيته بصحبة ابنته التي عددت لأبيها محاسن إيثار وأهلها وحسن ضيافتها في بيتهم.

مر يومان، وفي الثالث دَعى عمر صديقه خالد على مأدبة ليشكره على حسن ضيافة ابنته ورعايتها، وبالفعل حضر خالد وزوجته وإيثار.

فاستقبلهم سليمان ورحب بهم أبيه ودعاهم للجلوس بالداخل، تركتهم إيثار وصعدت لسارة تأتي بها بناءً على رغبة أبيها، طرقت الباب فاستقبلتها سارة بالمزاح والضحكات،

وصمتت فجأة، ثم قالت: رداء جميل وألوان أجمل، تبدعين في كل رداء يا إيثار كأنكِ درة متلئلئة لا تشوبها شائبة ولا تعصف بها ريح، توردت ملامح إيثار خجلًا وشكرتها على إطراءها وكلام مديحها.

ونزلا معًا للأسفل فقد كانت سارة تتضور جوعًا، فدخلا وسلمت سارة على الجميع وجلسوا لتناول الطعام.

ومرت الساعات على خير وجه فقد قضى عمر وسليمان وضيفهما الوقت بعد الطعام في الحديث عن العمل وما حدث في شذونة، وقد اقترح عمر على خالد دمج بعض أعمالهم معًا في الأندلس، وتركه على أمل التفكير وإعطاء القرار.

أما إيثار ووالدتها فكانتا مع سارة بالحديقة يتجاذبن أطراف الحديث وفجأة غامت السماء وأمطرت وانقلب الجو رأسًا على عقب.

فاصطحبتهم سارة للداخل لحين انتهاء المطر، ولكن طال الوقت ولم يهدأ الجو ويطيب كما كان، فاقترحت سارة عليهم

البقاء فمهما كانت الخيول مدربة فلن تقوى على السير في هذا المطر، وبالفعل كرر والدها العرض على صديقه وأقنعه بالبقاء ومازحه فيه وقال مبتسمًا له هذه بتلك وهو يشير إلى سارة، ويقصد بها رد جزءًا من ضيافتهم لسارة.

فقضوا ليلتهم في الحديث والسمر وسأل خالد عن سليم وقال: أين سليم؟ لماذا لم نراه اليوم؟ فأجابه عمر جئت أنا إلى هنا وأرسلته لطليطلة يتابع الأعمال التي كانت معطلة هناك منذ فترة.

فمالت إيثار على سارة وهمست لها، اعتقدت طوال اليوم بأنه لا زال غاضبًا، فهمست لها سارة صبرًا سأريكِ شيئًا بمجرد صعودنا للنوم.

ومرت ساعة أخرى وبعد العشاء بقليل صعد الجميع للنوم ، عدا الفتاتين فأخذتا تتجاذبان أطراف الحديث لوقت متأخر عن سُنَيْبِل والبَلَسان ومدى الخوف الذي انتاب إيثار عندما رأته.

فقد توجست خيفة منه ليس من أجلها ولكن من أجل البَلَسان فقد خافت أن يَقْطِفها، فضحكت سارة وقالت لها: هل سيترك كافة الورود الموجودة لتُقطف بلسانك هذه، فأردفت إيثار؛ هي جاذبة للنظر ووحيدة بين جميع الأزهار ومن السهل أن يلتفت انتباهه لها، فضحكت سارة وقالت لها: لن يحدث لو كان ممن يقطفون الأزهار لكان طالها وما حولها، ودعكِ من أزهاركِ الآن فالوسائد تناديكِ هيا بنا لنصعد، فقالت إيثار ذكرتيني، ما الذس كنتِ ستُرينني إياه؟

فقالت: تعالي معي.

وعندما صعدا دخلا غرفة سارة وقالت لها اغمضي عينيكِ، فضحكت إيثار وقالت لها: لما؟

هل ستُلقينني من النافذة؟!

ألهذا الحد أزعجتك اليوم؟!

فقالت سارة: لن أريكِ شيئًا قبل أن تُغمضي عينيك.

فقالت إيثار: ها أنا مغمضة العينين حبيسة اللسان.

فردت سارة سوف تكوني الآن فاغرة الفاه من فرط الجمال، والآن افتحي عينيكِ وشاهدي هذه.

فتحت إيثار عينيها ولم تستطع الكلام، فقد كان اسمها محفور بالفضة على قاعدة مرمرية يعلوها أكواخ بلورية محاطة بأسوار سداسية مزودة بأبراج فضية منقوشة برسومات نباتية، بديعة المنظر.

فقالت لها سارة ضاحكة أرأيتِ ألم أقل لكِ؟

ها أنتِ فاغرة الفم.

فقالت إيثار: ما هذا؟

فردت سارة سلم لي أبي ذاك الصندوق وأشارت إليه تحت النافذة وفيه هذه القطعة ونسخة أخرى محفورة باسمي ووجدت أيضًا هذا المكتوب فيه.

فقالت إيثار: وما الذي فيه؟

فقرأت عليها سارة الآتي:

أُختيتي طابت لكِ الأيام، وبُسِطَ لكِ الخير طوال الأعوام، هذه هديتي لكِ ولصاحبة البَلَسان.

واختتم الرسالة بريشة سهم، فاستعجبت سارة وفهمتها إيثار.

وسألت إيثار متى سيأتي؟

فجاوبتها سارة بعد شهر على الأرجح.

فقالت إيثار: صحبته السلامة والتيسير.

وجلست صامتة تمامًا لم يُسمع لها سوى أنفاسها تتأمل أشعة الشموع على البلور المتلألىء.

وقطعت تأملها سارة وقالت لها: ما بكِ ألم تُعجبكِ؟!

فقالت لها: لا إنها باهرة.

وأردفت إن أخاكِ سوي السريرة.

فقالت لها: كيف؟

فجاوبتها كيف بعد الخلاف يُهديني؟

فردت سارة باسمة وكيف بعد الخلاف تعتذرين؟

أنتِ اعتذرتي بما يروق لكِ وهو اعتذر بما راق له.

أماءت إيثار وصمتا وغاصا بالنوم، وفي الصباح استيقظا وتجهزا ونزلا لتناول الإفطار وذهب الرجال لمتابعة الأعمال وإيثار ووالدتها لمنزلهم ومكثت سارة مع خادمتها لترى ماذا ستفعل في الأقمشة التي جاءتها من شذونة؟

دخلت إيثار المنزل وصعدت لغرفتها ووضعت هديتها على المنضدة تحت النافذة بجوار زُهريتها الخزفية جلست تتاملها كثيرًا.

وقالت: كريم الأخلاق طيب الطلة، جعل لي من سيرته مسرة.

مر أسبوع وإيثار بين غرفتها و الإسطبل فلم يثسمح لها بالخروج إلى أن يستقر الجو.

وفي يوم؛ وجدت سارة تزورها فخرجا معًا للمرتفع فستقبلهما في الطريق سنَّانُ، فتهلَّلا لرؤيته وأخذا يطمئنان عليه ويُلاطفانه حتى وصلا.

جلسوا معًا وبعد اللعب معه ذهب هو ليلعب بالماء وأخذت سارة إيثار وسارا يتحدثان وبعد فترة قصيرة وجدا سنَّانُ يُنادي عليهن ويخبيء يده خلف ظهره ويقول لهن أحزروا ما الذي بيدي؟

فضحكا له وقالا عشبٌ أم ماء؟

فقال هو: لا هذا ولا ذاك، تفضلا لم أجد خيرًا من الزهور هنا لأقدمها لكما، نظرت سارة لإيثار تترقب ردة فعلها، ظلت إيثار تنظر لما في يديه في ذهول فقد كان حدسها صحيح.

قدم لهم سنَّانُ باقة من الزهور تتوسطها البَلَسان، لم تنطق إيثار و امتطت الفيروز في صمت مطبق وأخذت تركض بها تجاه المنزل، وأخذت سارة تناديها فلم تجبها، قد كانت شبه مصدومة بما رأت، ارتجف سنَّانُ من المشهد وركض للقرية، فلحقتها سارة للبيت، وصلت إيثار للمنزل وصعدت غرفتها، وبمجرد جلوسها انفجرت في البكاء، ظلت هكذا حتى دخلت عليها سارة وهي تقول لها اهدئي فالأمر هين، اعتبري أن الطيور أكلتها أو أن الرياح اقتلعتها.

لم تستطلع سارة تهدئتها بالقدر الكافي فتركتها وانصرفت لبيتها على وعد بزيارتها في الغد، جلست إيثار باكية لفترة حتى والدتها لم تقوى على إخراجها من هذه الحالة.

وبدأت الشمس في المغيب والليل خيم على الأجواء، وشعرت الفتاة بالوحدة الشديدة، وفجأة نظرت إيثار للحائط المقابل للنافذة فتجد خيال البَلَسان كأنما التهم معظم الحائط، فقالت ساخرة من نفسها، بدأ الهزيان ووصل للعنان، ثم دخلت مرمرة تحمل العشاء وكوبًا من العصير لها، فقالت لا أريد الطعام، فقالت لها مرمرة إذًا فلتشربى العصير ستغضب سيدتي إذا علمت بأني عُدت كما ذهبت، فقالت إيثار اتركيه. خرجت مرمرة وأغلقت الباب وإذ بإيثار تقف على سريرها في ذهول، فقد تحركت الزهرة على الحائط وأخذت الفتاة تحدق فيها والتفتت إلى النافذة فلم تجد شيء سوى النافذة والمنضدة، ولكن مهلًا قالت بصوت مسموع البللور، فتفقدتها وإذ بها تجد تجويف صغير مُجسم للبَلَسان داخل البرج الرئيسي بالصور فإذا سقط عليه الضوء انعكس ظله، فقالت أفزعتني يا سليم قد كاد قلبي يكف عن نبضه.

ظلت تنظر للظل ولسان حالها يقول قتلها سنَّانُ وأحياها سليم.

سليم وهمهمت قليلًا ثم قالت: هات ما عندك يا سليم، فمن الواضح أنني سأشكرك وأنحي المضض على جانبي الطريق.

أعترف لنفسي بأنك أهل للاهتمام.

الفصل السادس

حزن ورحيل

الفصل السادس
حزن ورحيل

لحق سُليمان بأخيه ومن المتوقع ألا يعودا إلا بتمام السنة فقد كانت الأعباء ثقيلة ومن الصعب العودة بعد شهر كما توقعت سارة، ولكن سُليمان كان يتنقل بين الأندلس وشذونة وطُلَيْطلة إذا لزم الأمر لموافاة أبيه بأمور سير العمل ومعاونة أخيه.

كانت الهدايا تغمر سارة وإيثار ووالدتها بمنتهى الكرم والرقي كعطور زهرية وأقمشة مخملية وقطع فنية، وفي كل مرة تتحدث سارة عن أخيها لساعات، وتأخذ إيثار في تفنيد كلامها لأيام.

وفي يوم صعدت إيثار للمرتفع على أمل مقابلة سارة، فظلت تنتظر وتنظر قليلًا لمكان البَلَسان التي لم ينبت مكانها شيء وقليلًا تلاطف الفيروز مستندة على جنبها تحدثها تارة

وأخرى تُضفر لها ذيلها وهكذا، وعندما ملت من الانتظار عاودت أدراجها للبيت وأرسلت مرمرة لتطمئن عليها.

وجائتها مرمرة مُحملة بأخبار سيئة، فقد مرض والد سارة ولازم الفراش وظلت سارة بجواره، فعندما أبلغت إيثار والدها بهذا همَّ مسرعًا ليُعايد صديقه ويرى ما به، وعندما وصل اطمأن عليه وسأله هل جاءك الطبيب؟

فقال عمر لا فالأمر بسيط، لا داعي للطبيب وأصر على

ذلك ولكنه رفض مجيء الطبيب، وظل مريضًا أسبوعًا كاملًا، فأتى به خالد رغمًا عنه، وبالفعل رآه وأحضر له الدواء المناسب في زيارة أخرى، وظل يتابعه قرابة الشهر، وفي خلال هذه الفترة لم يُرسل رسالة واحدة لولديه ولا قامت بذلك سارة، فأتى سليم هذه المرة ولم يُرسل سُليمان فلم يحدث من قبل أن تتأخر عليهم المُكاتبات لأكثر من شهر.

تفاجئ عمر بولده وقال له: ما الذي أتى بك هكذا؟ والتفت لسارة وقال لها: كيف تُرسلين له دون علمي؟ فأنا بخير.

فردت سارة لم أرسل شيء، فقال سليم لم يحدث أبدًا أن تتأخر علينا رسائلك يا أبي، فاعتقدت أن الأمر جلل وها أنا أراه فعلًا كما اعتقدت.

فربت عمر على كتف ولده وقال له مازحًا: أتيت بعد أن شُفيت.

هيا عُد الآن كما أتيت.

فقالت سارة: يعود إلى أين؟ قد افتقدناه كثيرًا ولازلت يا أبي مريض.

فقال لها قد دَبَّ النشاط في أوصالي ولم أعد بحاجة للدواء، دخل الخادم يخبرهم بقدوم السيد خالد، فدخل واطمئن على صديقه وسلم على سليم وسأله عن العمل ومدى سريانه هناك فأجابه بأن كل شيء على ما يرام.

جلسوا لتناول الغداء وبعدها استأذن خالد وانصرف ليباشر عمله، وصعد عمر يستريح بغرفته، وسألت سارة أخيها أين هديتي؟

فقال لها: وهل تجرؤين على طلب هدية؟

قالت: ولما لا؟

قال لها: أنتِ مُعاقبة لما لم تُرسلي لي موضحة مرض أبى؟

قالت: هو أمرني بذلك، هل أخالفه؟ فصمت.

فنظر إليها وقال: مُعاقبة قُضي الأمر.

نظرت إليه ضاحكة وقالت: سننتظر أخر اليوم ونرى من سيكون المُعاقب يا سليم.

فابتسم لها رافعًا حاجبه في تحدٍ وانصرف متجهًا للخارج، فقالت له: إلى أين؟

فقال لها: لا دخل لكِ.

فقالت له: لن تجدها هناك.

فقال لها: من هي؟

فقالت مازحة: أنت مُعاقب فلن أخبرك.

هدية تساوى إخبار، فتركها ومضى.

صعد للمرتفع فوجد سنَّانُ يلعب بحرية فناداه وقال له: ماذا تفعل هنا يا فتى؟

فرد سنَّانُ وقال: ألعب ككل يوم.

فقال: إذًا أنت هنا كل يوم؟

قال: نعم.

فقال: ما اسمك؟

قال: سنَّانُ.

فقال له: يا سنَّانُ هل يصعد هنا أحدًا غيرك؟

قال: نعم، تصعد الجميلتان بين الحين والأخر.

فقال سليم: ومن الجميلتان؟

قال: ابنة السيد خالد وابنة السيد عمر، لكن منذ مرض السيد عمر لم يأتي أحد إلا ابنة السيد خالد مرة أو مرتين ولم أجرؤ حتى على تحيتها.

فقال سليم: ولِمَا؟ هل كانت غاضبة؟

فقال سنَّانُ: لا، لكني تصرفت ذات مرة تصرف غير

محمود ومن وقتها وأنا أُحدثها بحذرٍ شديد.

فقال سليم: وما هو.

قال: إني أحببتها وأردت أن أقدم لها هدية فلم أجد على المرتفع سوى الماء والزهور، فقطفت مجموعة من الزهور وقدمت لها باقة جميلة وإذ بابنة السيد خالد مكفهرة الوجه غاضبة، وانصرفت ومن خلفها ابنة السيد عمر.

ومكثت قرابة الشهر لم أجرؤ على الصعود للمرتفع، وعندما صعدت ذات مرة وكانتا معًا تقدمت باعتذاري لها وقبلته لكن معاملتها لم تعد كسابق عهدها.

ها أنت الآن عرفت من أنا ومن يصعد إلى هنا، هل لي أن أعرف من أنت؟

قال: أنا سليم ابن السيد عمر.

فانتفض سنَّانُ وقال له: إذًا فالمرتفع ملك السيد عمر والسيد خالد قالها وهو يقبض بأصابعه على ذقنه، إذاَ لم يبقى

لهم في هذه المنطقة سوى قريتنا.

ونظر لسليم وسأله فأين سنذهب إذًا؟

قال له سليم لن تذهبوا إلى أي مكان وهذا المرتفع ليس ملكنا وقال مازحًا أوَ كل مكان تطأه أقدامنا نمتلكه يا فتى؟

فقال سنَّانُ: صحيح.

ترك سليم سنَّانُ وذهب للبيت، وعند عودته قال لسارة: من أين عرفتي أنها ليست هناك؟

فقالت متعالية باسمة: الهدية ثم الإجابة.

فأمسك بيديها وقال بحسم؛ لن أكرر ما قلت.

فقالت: لم نتواعد منذ فترة وعندما أُريد زيارتها أذهب إليها، وعندما تريد زيارتي تأتي هي إلى هنا، ومنذ مرض أبى تزورنا وأهلها بين الحين والآخر؛ والآن اترك يدى، فقال لها لن أتركها حتى أضع فيها هذا، وأخرج من جيبه عقدًا من الياقوت الأحمر بديع المنظر.

فقالت له باسمة: أين كان هذا منذ الصباح؟

فقبل رأسها وقال لها: منذ متى وأنا لم أجلب لك هدية عند عودتي؟

فقالت له: ولكنها المرة الأولى التي تُخفيها عني كل هذا الوقت.

فقال لها: لولا جدالك من البداية لكانت معك.

فقالت: لا يهم المهم أني حصلت عليه.

وأردفت وقالت له: أين عقد إيثار؟

فقال لها: وما أدراكِ بأنه عقد؟!

فقالت: إنك تجلب نسختين من كل هدية.

فقال لها: هذا ظاهريًا ولم تفهم سارة فحوى كلامه.

وأردف قائلًا: هذه المرة الأمر مختلف فسوف أُهديها بنفسي، ولا تجادلي في هذا فأنا متعب وأريد أن أرتاح قليلًا، تصبحين على خير.

فقالت له: وأنت بخير، لكني سأراه سأراه.

فقال لها: لن تريه إلا معها.

وقلت لكِ: لا تجادلي واصعدي للنوم.

وبالفعل نام سليم بمجرد أن وضع رأسه على وسادته من فرط إرهاقه، أما سارة فجلست فيما يقارب الساعة تفكر في هدية إيثار.

وفي اليوم التالي وبعد الإفطار والاطمئنان على صحة أبيه قال سليم لسارة: ألن تذهبي لإيثار؟

فقالت بخبث: لا، فأنا متعبة اليوم وسأجلس بجوار أبي عله يحتاجني.

فقال في تعجب: متعبة من الراحة؟! لم يمر على استيقاظك ساعتين.

فقالت باسمة: الإرهاق يدق الأبواب في أي وقت.

فقال: هكذا إذًا؟

فقالت باسمة بنظرة تحدى: نعم.

خرج سليم وجلس بالحديقة قرابة الساعة يتأمل الورود والأشجار من حوله، فقاطع تأمله صوت صهيل حصانه، فذهب إليه مداعبًا غُرته قائلًا له: ما بك هل تريد الخروج؟ هيا فكلانا يريد التنزه.

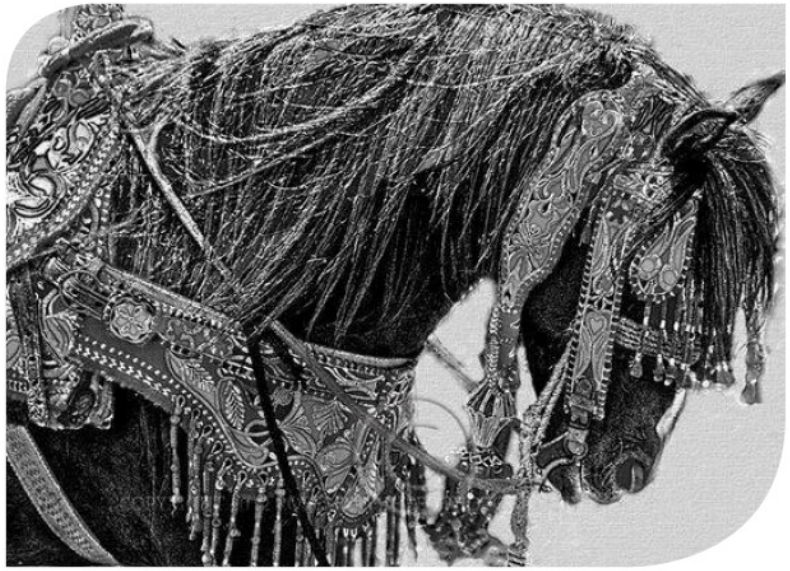

وبالفعل خرج سليم راكضًا بفرسه قائلًا له: لن أوجهك أنطلق كيفما تشاء أيها الأدهم.

أخذ الحصان يركض كأنه في سباق مع الريح، وظل هكذا إلى أن وصل لأطراف الغابة مُنهكًا فتوقف وترجل سليم ليُريح أدهمه ويُسقيه وإذ به يقابل سنَّانُ فيستقبله فاتحًا ذراعيه قائلًا له: مرحبًا بك يا سِنُّ.

وضحك سنَّانُ وبعدها قال: أنا الآن سِنُّ وسُنَيْبِل.

فهل يا تُرى أيهما أفضل؟

قال سليم: من أسماك سُنَيْبِل؟

فجاوبه الطفل أختك.

فقال سليم على فوره: إذا فسوف نعتمد لك السِنُّ.

وصافح سليم سنَّانُ، فقال سنَّانُ لما لا نذهب للشلال فاليوم استأذنت والديَّا وسَمَحَا لي وعليه فسوف ألعب دون ترقب.

وبالفعل أجلس سليم الطفل على حصانه ومشى به إلى المرتفع حيث الشلال، فوجد الفيروز تشرب منه فأنزل سنَّانُ وتركه مع الخيل ومضى يبحث بناظريه على مبتغاه.

فوجدها تجلس على الأرض وخُيل له أنها تنظر لشيءٍ ما وبالفعل، كانت تنظر إلى مكان الزهرة بين الصخرتين وتُحدث نفسها فلم يقترب كثيرًا حتى لا تلحظه ليستمع إلى ما تقول.

وبدأت تتكلم بجمل غير متصلة ببعضها كل جملة مستقلة بذاتها تصف كل موقف على حدا كـ....

أتى ولم يأتِ، إذاَ فلِما غمرني بهداياه؟

في البداية أتى واعتذر.

حين رأيته واقفًا أول مرة على الصخر قلت: من هذا الذي جرؤ وصعد إلى هنا دون علمي؟!

مستفزًا عقلي شامخ كشموخ الجبال، وحين رأيت وجهه كأنه البدر على صفحة السماء، وأما صوته رنان- رخيم- جذاب، لا أدري كيف كل هذا ولكن هذا ما كان إنه بحق سليم العقل والبنية آثر وآسر، لكنه عنفني بشدة ولن أغفر له هذا حتى لو جاء بالهدايا قناطير مقنطرة، لكنه....

فقاطعها وقال: كفى كفى فسأغتر بنفسي، واحمر وجهها

خجلًا وتلعثمت في الكلام وأرادت أن تُغير ما هي عليه.

وقالت له بصوت مرتفع: كيف تجرؤ على التنصت هكذا؟!

ليس هذا من آداب الـ...؛ فقال لها مبتسمًا ملوحًا بيديه لا تحاولي فقد كان ما كان.

وقال: أعلم أنني مثل ما قلتِ ولكنك أجحفتينني حقي وهذا غير مقبول، أنا أكثر من ذلك بكثير، يأخذن شهورًا في وصفي، وتعداد مناقبي.

فهمهمت ساخرة، فلم يسمع وقال لها: أعيدي على مسامعي ما قلتِ.

فقالت مغتاظة: لم أقل شيء.

قال لها: هيا هيا أكملي أم آتي لكِ بقرطاس تكتبين فيه مآثري.

فهَمَّتْ بالنهوض فاعترضها وقال لها:

لازلتِ طفلة تُسْتَفَزِي وتَغْضَبي، أمَا آن الآوان لتكبري.

فقالت: فعلًا مستفز فأنت...

فقاطعها وقال بصرامة بصوت متزن مناسب: لن أقبل حدتك بعد هذه اللحظة، تعاملي بطبيعتك وإلا عاملتك بخلاف طبيعتك.

فتجهمت ولم تنطق وكسر سنَّانُ حاجز الصمت سائلًا إياها: هل لازلتِ غاضبة مني؟ وأقسم لها أنه لم يقطع زهرة منذ ذلك اليوم لاجلها.

فقال له سليم: لاتقلق فهي ليست بالغاضبة.

فنظرت إليه نظرة المغلوب على أمره.

وقال له: هل تعرف بيتنا يا سِنُّ؟

فقال: نعم يا سيدى.

قال: حسنًا؛ إذا فاذهب ولا تأتي إلا وسارة بيديك؛ وبالفعل ذهب سنَّانُ، وظلت إيثار يتملكها الصمت المطبق بضعًا من الوقت.

فقال لها: ما بكِ؟

أوجودى إلى هذا الحد غير مرغوب فيه؟ بعتذر- أودعك فسأرحل مجددًا ول...

فقاطعته سائلة: لِمَا؟

فقال: ولِمَا صمتك؟

فابتسمت وقالت: أهذه بتلك؟

فرد قائلًا: نعم هذه بتلك.

فقالت: أشكرك على هداياك، وشكرًا جزيلًا لك بالأخص على المجسم البلوري وزهرته وعطر العود وريشته.

فقال: عندما تنطقين تنطقين بشكر.

فقالت غاضبة: ألا يعجبك شيء؟

فقال لها متعجبًا مبتسمًا: مُجَدَدًا؟! تحتدين مجددًا؟! لا فائدة.

فقالت له: لا تُغضبني ثم تعترض على ردة فعلي.

فقال: أنا لم أغضبكِ بعد.

فقالت: إذا فقد نويتها؟!

فقال مبتسمًا قابضًا على الهواء بيديه: كفاكِ شجار.

فقالت: أأنا...؟؟

وقاطعتهما سارة وقالت: أقسم أن هذه خارج المعقول، أكلما مر الوقت وتصادف لقائكما لا نراكم إلا متشاجرين؟!

قال سليم: اجلسي ولا تثرثري.

فقالت: ماذا هل كلم.... فقاطعها بنظرة فسكتت على فورها.

فقالت إيثار: تكلمي كما تحبي هل وجوده مرعب إلى هذا الحد؟

فضحك بصوت مرتفع وقال: طالما تسدين نصحك لها فأين أنتِ من نفسك؟

فقالت: هناك فرق؟

قال: ما الفرق؟

قالت: لا يعنيك ولا تتدخل؟

فقال: هكذا إذًا!

أينطلق لسانك بوجودها لتُثبتي شجاعتكِ في الرد؟

قالت: ينطلق لساني وقتما أريد لا كيفما تحب.

فقالت سارة محاولة استفزاز سليم: كفى كفى؛ وأريني يا صديقتي يا أُختي ماذا أهداكِ؟

فقد عاقبني بالأمس ولم يُريني شيء، فنظرت إيثار وأشارت إليها بعدم المعرفة.

فضحك سليم وقال لها: لا تحاولي فلن تريه إلا معها ومعها فقط أريحي نفسك واهدئي.

فقال لهما: هيا حان وقت الذهاب.

فقالت إيثار: تفضل صحبتك السلامة، فلم تفهم سارة.

وقال سليم: أتفضل إلى أين؟ أقول لكما انهضا فلن أترككما والشمس قاربت على المغيب.

فقالت ايثار ساخرة: مغيب؟!

لم يحن عصرها فأين مغيبها؟

فقال: ستغيب ستغيب وذهب ليحضر الخيل وسأل عن سِنٌّ فجاوبت سارة أَبْلَغْني ومضى.

فوجهت سارة وجهها لطريق منزلهم العامر وسارت أمامهم بخطوات فقال لها لما لا تمطتي الأدهم؟ فلن أسير بسلحفاة. فحاولت الرد فأشار لها بسرعة الخطى للأدهم ولم ينطق فذهبت مغتاظة تجاه الخيل.

فقالت إيثار: لما تضايقها بين الحين والأخر، فلم تُحدثني عنك إلا بكل حُسن وطيب من فرط كرمك ولطف طبعك وطيب لسانك. فقال لها: كي أقدم لكِ هذا وأوفي بما قلته لها.

وإذ بإيثار محدقة فيما يقدم وكأن على رأسها الطير صامته من بديع ما ترى، فقد كان عِقدًا يا قوتي كعِقد سارة ولكن تتغلف كل ياقوتة على حدى بإطار ذهبي بنقوش نباتيه دقيقة الصنع يتدلى من قفله ثلاث ياقوتات بسلاسل ذهبية محفور على أجربتهم ثلاثة كلمات، "سلامٌ على إيثاري".

فوضعه بيدها، فقالت مقاطعة سارة ألن نذهب؟

فقال: هيا هيا، فامتطت إيثار فيروزها.

وقال سليم مبتسمًا لسارة: ألآن والآن فقط تستطيعي رؤيته. فنظرت لإيثار مشيرة إليها هل ما يقوله صحيح؟

فأومأت إيثار لها ومدت يدها وأعطتها العِقد.

فصرخت سارة وقالت: ما هذا الجمال؟ ليس متطابق كما عودتنا.

فأردف قائلًا: لم أُرسل شيءٍ متطابق، فالاختلاف كبير ولكن لا يراه إلا مُدَقِّق؛ ولكن اختلاف هذا لابد وأن يكون ظاهرًا لا يحتاج لتدقيق.

فقالت سارة: كيف هذا؟

فقال لها: لا تسألي ستعرفين في المساء.

فنظرت إلى إيثار، فأومأت لها إيثار بعدم المعرفة، فأوصلا إيثار ولم يدخلا وواصلا مسيرتهم للبيت.

وعلى الفور وبمجرد دخول إيثار للبيت كتبت مكتوب لسارة تستفسر منها عما ينتويه سليم وأرسلت به مرمرة وأوصتها بتسليمه لخادمتها دون أن يراها سليم، وبالفعل ردت سارة بعدم معرفتها بعد وذيلت ردها بأنها مستغربة تصرفات أخيها منذ أن أتى، وستوافيها بما ينتوي حال معرفتها.

وبعد تناول الغداء غاب سليم مع أبيه بمكتبته وخرج متهللًا فرحًا.

ونادى سليم سارة وقال لها: اتبعيني بكل حسم وكأن خلاف قائم بينهما ويصل لعنان السماء، فقالت ما بك؟ ولماذا أنت غاضب؟

فقال لها: سأُخبركِ بشيء ولا تخبريه لأحد.

فضحكت وقالت: وهل أعرف هنا أحدًا سوى إيثار وبيتها يا سليم، قل ماذا تريد؟

فقال: هنا مربط الفرس إيثار، لا تُخبري إيثار مفهوم؟

قالت: نعم، تفضل.

قال لها: سيذهب أبي اليوم لخطبة إيثار لصديقي طارق، فقالت متجهمة: صديقك؟!

قال: نعم.

قالت: وأين رآها؟

قال: لم يراها بعد؛ ولِمَا أنتِ متجهمة هكذا؟

قالت: لأني اعتقدت أنك ستطلبها لنفسك لا لصديقك، وسألته لما لا تطلبها لنفسك؟

فقال: لن تستقيم الأمور بيننا أولًا: لكثرة شجارنا فلم نلتقي إلا وتشاجرنا.

ثانيًا: إيثار فتاة جميلة ورقيقة لكنها حادة معي وهذا غير مقبول.

فقالت له: صدقت إيثار حين وصفتك بالهاذي.

وتركته وانصرفت فنادى عليها واعترضها وقال لها ادخلي لم آذن لكِ بالخروج وسَتُحاسبي على أُسلوبك ولكن صبرًا، فدخلت وجلست كما كانت.

وقال: لم أعلم أنك قاصرة الفهم إلى هذا الحد، فحاولت قطعه، فقاطعها وقال: لم أُنهي كلامي حتى تُعقبي.

هل تعتقدى يا بلهاء أنني لم أُفكر في الزواج منها؟

فقالت: ولكنك؛ فقاطعها؛ لم أنتهي، وهل تعتقدي أن هذا الشخص نُرشحه لهم وهو غير كُفء لها؟

فقالت: كنت آمل أن تكون زوجة أخي حتى لا نفترق فكما تعلم بسبب سفرنا المتكرر لا أصدقاء لدي وقد أحببتها واندمجت معها، قد اتخذتها أخت لا صديقة وقد عوضتني والدتها كثيرًا عن فقد أمي.

أُقسم لكِ إنها كانت لا تتكلم عنكِ إلا بخير، إيثار ودودة طيبة القلب وليست فظة كما تعتقد، فقال لها؛ إذًا ستسعدين إذا كانت إيثار زوجة أخيكِ؟

قالت: بلى؛ بالطبع.

فقال لها: سأذهب أنا وأبي لِخطبتها اليوم وقد أرسل أبي لوالدها يستأذنه بزيارتهم في المساء.

فقالت له: ولكنك تقول، فقاطعها وقال لها كنت أود معرفة إلى أي مدى ارتباطك بها.

فبعد أن كانت متجهمة الوجه تهللت فرحًا وقال لها: والآن فقد أرسل طارق اليوم لأبي خطابًا يُفيد برغبته في خطبتك وقد أرسلني أبي إليك لأعرض عليكِ الأمر قبل أن أرجع لطُليْطِلة آخر الأُسبوع؟

فصمتت وهي تنظر إليه وتريد أن تسأله؟ ولكن نطقت بخلاف ما كانت تنتوي.

وقالت: هل تقصد طارق؟طارق؟

قال: نعم؛ وهل هناك غيره؟

قالت له: ستُسافر أخر الأسبوع؟ ومتى ستأتي؟

قال: بعد شهر تقريبًا إن لم يجِدْ جديد.

فقالت له: سأفكر في الأمر وأُعطي لك ردًا عند عودتك.

فقال لها: سآخذ ردك قبل سفري.

والآن تفضلي واستعدي فستأتين معنا، وبالفعل ذهبت.

استقبل خالد صديقه وولديه بكل ود وترحاب ودعاهم للعشاء.

فقال عمر: قبل العشاء أريد أن أُحدثك في شيء.

فقال له خالد: أنا من أريد الحديث معك، وبالفعل دخلا وتحدثا وخرجا مُتهللين، فلم يفهم سليم ما الأمر الذي يريد خالد التحدث به، دخلت زوجة عُمر مرحبة قائلة: أهلًا بشركائنا الجدد فتوقعت سارة أنها تعلم بسبب الزيارة،

فصعدت لإيثار فوجدتها كنجمة مضيئة في صفحة السماء السوداء ترتدي زيًا شديد البياض حريري زينته بنطاق وردي وعلى جيدها عقد ياقوتي.

فقالت سارة: بهية وضاءة كأول مرة رأيتك فيها يا إيثار، فابتسمت لها وتهللت بوجودها وأجلستها مُقدمة لها قارورة عطر زجاجية تحتضنها نباتات نحاسية.

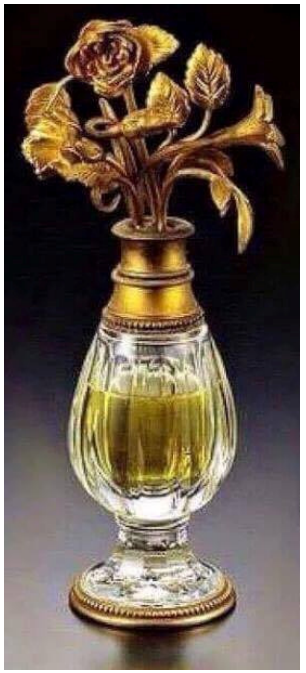

شكرتها سارة، وقالت لها: هل تعلمي لما أتينا؟

فقالت إيثار: نعم بالطبع.

فقالت: كيف علمتي؟

ردت إيثار خبرتني أمي بالأمس، فلم تفهم سارة وقالت لها: كيف أمس؟!

قالت إيثار: أمس؛ نعم أمس.

فقالت سارة: ما الذي تعلميه؟ أجابتها إن أبي سوف يدمج أعماله بالأندلس مع أبيكِ، لذلك سوف تعزز هذه الشراكة من توطيد علاقتهما واتساع نطاق أعمالهم.

فقالت سارة: ولكن أبي لم يأتي ليتكلم عن شراكة أعمال، إنه أتى لشراكة أعمق.

فقالت إيثار: لا أعلم ولكن ما أنا على يقين منه أنهم أدرى بمصلحة أعمالهم.

فقالت سارة: أين هرب عنكِ الفهم هذه الساعة؟!

فقد جاء أبي لخطبتك، فتجهمت إيثار واحمر وجهها قلقًا بل غضبًا وقالت؛ ماذا؟أبيكِ يخطبني؟!

كيف؟ قالت: نعم أتى ليطلبكِ من أباكِ ما الخطأ في هذا؟ ولما أنتِ غاضبة إلى هذا الحد؟ اعتقدت أنكِ ستتهللين فرحًا من هذا الطلب، اعتقدت أنكِ أُختي وعاملتك على هذا

الأساس، فقالت إيثار: نعم أُحبكِ وعاملتك كأختي ولكن ليس معنى أنكِ صديقة وأخت أن أتزوج أبيكِ؟

فقالت سارة: أبي؟!من قال هذا؟

قالت: أنتِ؟

فقالت سارة ضاحكة: أنا أقول أن أبي طلب خُطبتك لسليم لا لنفسه وذلك قبل سفره، ألم أقل لكِ أن الفهم بعيد عنك اليوم.

صمتت إيثار للحظات وقالت: سليم؟! كيف؟!

هل سيذهب فعلًا؟

قالت سارة: نعم سيسافر لطُلَيْطِلة بنهاية الأُسبوع، فصمتت إيثار، وربتت سارة على كتفها بخفة ومزاح.

من زيَّن جيدك بالأسفل ينتظرك سيتضور جوعًا وقتها أقسم أنه سيتلون، هيا تحجبي ولا تحتجبي وبعد انتهاء الليلة

أُريدكِ في أمر هام.

قالت: ما هو؟

ردت سارة غدًا كي لا نتأخر عليهم تريثي.

ودخلت والدتها وقالت: هيا يا فتياتي فالعشاء ب انتظاركن، وبالفعل نزلت والدة إيثار وسارة ولحقتهما إيثار بمنتهى البهاء بزي أخضر ملكي مشغول بأغصانٍ نباتية وخيطانٍ ذهبية.

رحبت بالضيوف وجلست لتناول العشاء ولم ترفع عينيها لأحد، وكلما سُئِلَت جاوبت ونظرها إلى صحنها، فوكزتها سارة بقدمها وقالت هامسة: انظري إلى خريطة المائدة، يجلسون كما لو كانوا على مائدة الخليفة.

فردت إيثار كلي واصمتي.

ألم أرسل إليكِ مرمرة بكتاب ورديتي عليَّا فيه وقلتِ: لا أعلم.

قالت: أُقسم ما كنت أعلم، لم يُخبرني إلا قُبيل خروجنا إليكم.

فقالت الأم: اشركونا معكم يا فتيات.

فقالت سارة: كنت أتفق معها على أن نلتقي غدًا صباحًا عند المرتفع، فتُقنعني بالبقاء وأقنعها بالذهاب.

فقالت الأم: ومن الفائز؟

قالت سارة: لازلنا نتناقش.

فرد أبا إيثار: اذهبي معها منذ متى وتناقشين في المرتفع؟ وأردف كنا يا عمر عندما نيأس من البحث عنها نتذكر أمر مرتفعها، نجدها جالسة لا تفعل شيء سوى أنها تخاطب الزهرة.

فضحكت سارة وقالت: إذًا فلنذهب ونخاطب الصخرة.

فنظرت لها إيثار وقبل أن تنطق قالت لها سارة: سأجلس مكان الزهرة وخاطبيني فلن تجدي في الكون زهرة أجمل مني.

وانتهى العشاء بين مزاح وكلام، وعاد الضيوف وما هم بضيوف إلى بيتهم.

وصعدت إيثار إلى غرفتها تنظر للعقد الياقوتي وتقول لنفسها: زانني بالياقوت والفضة ولم يرى مني سوى الشدة والحدة، وقاطعها دخول والدتها تخبرها بما قاله أبيها من طلب خطبتها لابن عمر، وابلغتها بأن والدها مُرَحِب بالأمر فالشراكة توطد العلاقة والزواج يُطيل عمرها، وأبلغتها برأيها في سليم وتركتها تفكر وخرجت.

أما في بيت عمر فحدث الآتي دخلوا وصعدوا كلًا على غرفته الأب متهلل والفتاة وسليم مُتجهمي الوجه غاضب لم تفهم سارة ما به، وانتظرت حتى تتاكد من نوم أبيها وكلمت

سليم تسأله ما به فقال لها: كانت طيلة الوقت تنظر في صحنها ولا ترفع عينيها حتى لكأس الماء.

أكان يجلس أمامها كائن هُلامي أم شبح خفي؟

فضحكت سارة بصوت مرتفع فاستشاط سليم غضبًا وقال:

أهذا وقت ضحك؟! اذهبي للنوم من الواضح أن الطعام كان ثقيلًا عليكِ.

فقالت: ألم تعلم إلى الآن أن الفتاة شديدة الحياء؟ ما أرتك حدتها إلا لتُخفي حمرة وجهها وما تجاهلت النظر إليك إلا قطعًا لك تحسبًا لكلامها.

والآن أستأذنك للنوم فغدًا أنا منشغلة فلا تُعطلني.

فقال لها: أغربي عن وجهي فقد قلتي ما يكفيني لسنة.

فخرجت ضاحكة وقالت: تُصبح على خير واختفت.

نام الجميع في سكينة وهدوء، وفي الصباح التقت الفتاتان في الطريق وعندما وصلا وجدا سليم بانتظارهما.

فقالت سارة: ما هذا ألم أتركك في غرفتك تغط في نومٍ عميق؟

قال: إذًا فأين أنا الآن هنا أم هناك، الأفضل اذهبي للبيت ثانيةً وتفقديني قد أكون لازلت أغط في نومٍ عميق.

فقالت: ها هو اليوم بدأ.

جلسوا وقال سليم: صباح الخير.

فردت سارة: سلمت يا سليم صباح الخير.

فقال لها: خيرها خير من خيرك اصمتي قليلًا ألا يعرف الهدوء لكِ طريق، فردت إيثار صباح الخير.

فقال: كيف حالك؟

فقالت: هل أنت مُسافر بحق؟

فردت سارة نعم ألم أقل لكِ بالأمس؟

فقال لسارة: تسألُني أنا يا ذكية فلما تجيبي؟!

هدوء يا سارة خيمي علينا ببعض هدوئك وإلا فاذهبي.

فقالت: هو وقتنا وأريد أن أكلمها في أمر يخصني.

فقال لها: خيمي خيمي بهدوء هدوء يا سارة هدوء.

فقال ناظرًا لإيثار: نعم سأسافر بنهاية الأسبوع، فقاطعته ومتى تعود؟

قال مبتسمًا: بنهاية الشهر إن لم يجد جديد.

فقال لها: ما رأيكِ في طلبي بالأمس؟

فردت سارة: موافقة موافقة هي لن تقوى على البعد عني بالإضافة، فقاطعها سليم بابتسامة وهو يقول:

بالإضافة أنني سأكسر رأسك إن لم تصمُتي، فضحكت إيثار مقهقهة على حالهما، شد وجذب يثير الضحك فعليًا وهي

تنظر لهما تارة تبتسم وأخرى تضحك.

فقالت سارة: أوافق عنها فأنا أدرى بمصلحتها.

فقال سليم بحسم: سنتكلم في وقت أهدى من هذا.

وقال موجهًا كلامه لسارة: أنا بالبيت- ساعتين وأعود، تكونين قد انتهيتِ من ثرثرتك بالكلية.

قالت: لا لا سوف أذهب للبيت أنا ولكن لا تطالبني برد إلا بعد جلوسي معها، سلامًا يا صاحب صاحبة البَلَسان.

ووجهت ناظريها لإيثار وقالت: إذا استفزك ومللتِ منه دعيه وتعالي إليَّ نثرثر كما نشاء تقولها مستفزة لأخيها فما كان منه إلا أن وضع يده على الأرض فاعتقدت في غضبة فنهضت سريعًا وقالت مهلًا مهلًا وداعًا، فضحك ضحكات متتابعة تعانق السحاب.

وقال لها: كنت فقط أجلس بأريحية أكثر، فضحكت وأشارت له بيديها ضاربة الهواء أن اصمت.

وقالت لإيثار: عندما تملي منه اتركيه وتعالي إليَّ، ووجهت وجهها لطريق العودة.

عم الهدوء والصمت المطبق عليهما، فنظر لإيثار وقال لها: مبتسمًا صباح الخير .

فابتسمت وقالت: صباح الخيرات.

فقال: هل علمتي بما دار بالأمس مع والدك؟

فقالت: في أي أمر الشراكة أم طلبك؟

فقال: طلبي؛ فالشراكة أمر مفروغ منه بين أبي وأباكِ، كل ما يشغلني الآن هو الرد.

فقالت: سألت أبي وسيجيبك أبي.

فقال: وها أنا أسألكِ الآن فوجب عليكِ الإجابة.

فقالت: ما لهذا الرد من وجوب، أنا أجيب وقتما أريد الإجابة. فقاطعها مشاورًا بيديه إشارات تفيد الرفض وقال: لا لا ليس الآن حاولي تبديل الحديث فيما بعد، أريد إجابة مباشرة، فصمتت.

وأردف هو قائلًا: بأي عينٍ تريني؟

فقالت: أراك الحليم.

فقال: جميل؛ إذًا لما يتملكك الخوف كما فُتِحَ لنا بابًا لجذب

أطراف الحديث.

فقالت متعالية: أنا لا أخاف أحد، ولِمَا أخاف منك تحديدًا هل أنت وحشٌ بري أم شبح خفي.

فصمت لبرهة ثم قال: بنوع من الصرامة؛ جميلٌ إذًا طالما لم أكن بالوحش البري ولا بالشبح الخفي فلِما تخافين من حديثي، فقالت مُسْتَفَزِة على فورها، لأنك تتكلم هكذا، فضحك حتى عانقت ضحكاته عنان السماء وقال لها: كنت اسمع منذ برهة من تقول؛ أنا لا أخاف أحد، هل تعرفيها؟

فقالت له: من السهل أن أرفض فلا ينبغي لي أن أحيا حياة تملؤها الخلافات.

فقال لها: ليس من الصعب أن ترفضي ولكن من المستحيل، فمثلي لا يُرْفَض وظل يُعدد مناقبه ولم ينتهي إلى أن قاطعته قائلة كفاك غرور و...

فقاطعها وقال: لم يعرف الغرور بابي إلا بكِ.

فتوردت خجلًا وقالت: قد سألت أبي وسيُجيبك أبي، والآن سأعود للمنزل أستأذنك، وهمت بالنهوض حتى قال لها هل مللتِ كما قالت صديقتك.

فقالت: لا.

فقال: لِمَا؟

فنظرت إليه متعجبة، فأعاد عليها السؤال، أقول لكِ لِمَا؟

فقالت: أنت لا يُمَل مِنكَ يا سليم، كل ما هنالك أنني لست مفوهة حتى أجد ردودًا لكل أسئلتك.

فقال لها: ماذا؟

فقالت ثانيةً: لست مفوهة حتى أجيب عن كل أسئلتك.

فقال لها: لا ما قبلها؟

لقد سمعت مَنْ يقول أنتَ لا يُمَل منكَ يا سليم صحيح، فقالت: نعم بالفعل.

فقال لها مفتخرًا مرتبًا هندامه أكثر: ألم أقل لك من قبل مستحيل أن ترفضني فتاة.

فقالت له: سأذهب للمنزل واجلس أنت هنا رتب هندامك أكثر وأكثر.

فضحك لها وقال: ستظلين طفلة، تتصرفين كالأطفال تُحبين كالأطفال حتى في الغضب تغضبين كالأطفال، من الأفضل أن أكفل طفلًا يكون سببًا للجنة.

فنظرت إليه وقال لها: سننظر ونصمت، هيا هيا سنذهب للبيت كي لا يقتلني صمتك.

فوجدا سارة تقول له: اذهب أنت سأبقى معها هنا.

تصوير: أ/ محمد عبد الرحيم

فقال لها: لا تعالي وأنا عند الشلال عندما تنتهوا سنذهب معًا.

وبالفعل ذهب للشلال ممسكًا بفرع شجر رفيع يكسره لقطعٍ متناهية الصغر، أما الفتاتين فأخذا في الحديث فقد بدأت سارة بالحديث عن طارق وأنه ابن صديق والدها وفي نفس الوقت صديق سليم وجلسا يتحدثان طويلًا وبعد انتهاء سارة وإبداء إيثار لرأيها فيما قالت أخذت تتكلم عن سليم وتُعدد صفاته الحسنة وفجأة سمعا صوت صراخ قريب من الشلال، ففزعا ونهضا ليروا ماذا حدث فإن سليم هناك ولكن الصراخ صراخ طفل، وسليم لا تراه أعينهم فركضا إلى هناك، وإذ بسُنَيْبِل يُخرجه سليم من الماء فقد تعثر ووقع على الصخر في الماء وجُرِحت قدماه.

وضعه سليم على الأرض وأخذ بمسح وغسل دمه بالماء وضمد جرحه بمنديل حريري بيد سارة، كل هذا وسارة

تشاكس سنَّانُ وإيثار تُشاهدهم جميعًا في ترقب ولم تنطق ببنت شفة، فقال سليم موجهًا كلماته لسارة، اذهبا معًا لبيتهم وسأوصله لبيته وأعود إليكم.

وبالفعل ذهبا وانتظروه، ذهب سليم للقرية حاملًا سنَّانُ، فرأته والدته محمولًا ففزعت.

فقال لها سليم: لا تقلقي أراد أن يُلاعب الماء فغار منه الصخر، فضحك سِنُّ وقال له: بغيرته كاد أن يكسرني، فردت أمه الشلال ثانية يا سنَّانُ، فصمت الولد، وسأل سليم عن أبيه النيسابوري، فقالت أمه خرج باكرًا وعلى وشك المجيء، فحمل الخادم سنَّانُ وأدخله إلى أن يأتي والده ليراه، وما كان من سليم إلا أن اطمئن عليه ومضى.

وفي طريق العودة وجد بائعًا لأعشاش الطيور متقنة الصنع تخطف الأنظار.

فجلب اثنين ومر على بيته ووضعهما بغرفته، ثم عاود لبيت عمه واستأذن ودخل وسلم وسأل على الفتيات، فأجابت زوجة عمه بأنهن بالحديقة، فكانت سارة تتحدث عن طارق وطلبه وعلى أصل معرفتها به.

ذهب سليم إليهما بطيء الخطى، فوجد إيثار تتكلم بكلمات رقراقة تصفه فيها، فتوارى خلف شجر التوت حتى تنتهي، فوجدها تقول لسارة،: أسليم هكذا طيلة الوقت؟ فسألتها سارة؛ هكذا كيف؟

فقالت: هكذا؟

فقالت سارة: لا هو ليس بهكذا هو كذا دون الهاء.

فقالت إيثار ضاحكة: فعلًا بلهاء.

فظهر سليم وقال: ألم أقل لكِ أنها بلهاء ولم تُصدقي.

فردت سارة هكذا إذًا؛ فقال سليم: نعم بالطبع.

فوجهت وجهها لإيثار وقالت لها ضاحكة مستفزة إياها: إذًا فلتسأليه هكذا هكذا، فتوردت إيثار خجلًا.

وقالت: أختك فقدت عقلها.

فقال لسارة: اذهبي مبتسمًا اذهبي فإن والدتها كانت تُريدك، وبالفعل ذهبت معتقدة بصدق كلامه.

وأردف سليم؛ نعم أنا هكذا طيلة الوقت؛ وماذا بعد، فنظرت إيثار محدقة فيه ولم تنطق بكلمة، فقاطع صمتها بطرقة أصابع وقال: أعيريني انتباهك قليلًا.

فقالت: منتبهة.

فقال: وماذا بعد؟

فقامت وقالت بحدة: أكنت تسمعنا؟

قال بابتسام: لا بل كنت أتسمعك.

فابتسمت، وأردف- ولا تغيري مجرى الحديث، وسأسألك سؤال ولن يتكرر ثانية؟

قالها بنبرة حزم ولين- كيف تراني عينك يا إيثار؟

فقالت: أراك رجلًا طُويت الأرض تحت قدميه، وإذ بسليم يهوى على الأرض كبناءٍ شاهق الارتفاع عصفت به الرياح.

وكأن كلماتها نزلت عليه كصاعقة من السماء عصفت بقواه وخار أرضًا، فذهلت إيثار مما رأت، فما كان منها إلا أن هبطت على الأرض بجواره كهبوط طائر حط على غصنه مرتعدَ، فلم تجد نفسها إلا تتحسس وجهه ورأسه وتنطق باسمه تترجاه للإفاقة، وفجأة قُتِلَت كلماتها وتصلب لسانها وتحجرت عينيها بالنظر على يديها فلم تجد سوى يدين مخضبتين بدماء رأسه،

فتركته كما هو، ودخلت لا تنطق، فقط رفعت يديها تريهم دمه.

ففزع الجميع ولم يفهموا منها ما حدث سوى سارة قالت لها :أين سليم؟

فأشارت بالخارج، فركضت تجاه أخيها وخرج الجميع ورائها أخرهم إيثار تجر أرجلها جَرًا، صرخت سارة محدثة أخيها عله يفيق، وبالفعل بدأ يُحرك يديه ويتحسس رأسه فقد اختل توازنه وعَثَرَتْهُ فراغات الأحجار فسقط وارتطمت رأسه بها، فأمر خالد طريف ليُحضر الطبيب.

وبالفعل جاء الطبيب وضمد جرح رأسه، وسأل سليم عن حال سنَّانُ فأجاب النيسابوري أنه بخير وشكره على ما فعل مع ابنه ومضى، أراد سليم النهوض فنهض لكنه لم يتزن بعد فعرض عليه عمه المبيت فرفض وادعى بأنه على خير ما يرام، فقال له عمه: أرتاح قليلًا ثم انصرف كما تحب، هنا بيتك وهناك بيتك.

فابتسم سليم وشكره وذهب هو وزوجته وتركا معه سارة وإيثار، فجلست سارة بجوار أخيها قائلة له: لقد هرب دمي مني.

ماذا حدث؟ فقال: تعثرت فقط.

فقالت مازحة: ومال هذا البناء بالتعثر هل عصفت بك نظرة ناظرٍ موجهة كلامها لإيثار، فرمقتها إيثار بنظرة أن اسكتي وإلا انقلب السحر على الساحر.

وأردفت سارة وهي تسير مزهوة نحو إيثار غامزة لها قائلة: مما تعثر؟ قولي لي ها.

فقالت: تعثر من فرط حسدك له.

قالتها وهي تنظر لسليم وتقول: أليس كذلك؟ ضحك سليم وقال لهما: كفاكما فرأسي يؤلمني حتى الضحك صار ثقيلًا عليَّ الآن.

فقالت إيثار: سلِمْتَ يا سليم.

وظلا ينظران لبعضهما في صمت حتى قاطعتهما سارة وهي

تجلس وتقول، إذًا سنبيت هنا اليوم.

فقال سليم: سنذهب واصمتي قليلًا؛ اذهبي أريد ماء، وإذ بمرمرة تستأذن للدخول تسألهم هل تجهز العشاء الآن أم تنتظر قليلًا؟

فقال لها سليم: لا داعب لذلك فسوف نذهب لكن أأتيتني بماء.

فقاطعته زوجة عمه وهي تقول باسمة: العشاء أولًا ثم الذهاب إن أردت ولا ضير من الماء الآن.

فقال لها: كما تشائين.

فذهبت مرمرة لتأتي بالماء وخرجت زوجة عمه وخلفها سارة تسألها عن شيء (عامدة الانصراف)، فقالت إيثار ابقي هنا فلازلت غير متزن، فقال لها:

عثرتني أحجار بيتكم أيرضيكِ هذا؟

فقالت: وأنا التي اعتقدت بأن كلماتي هي السبب، فقال لها

كلماتك سبب في شيءٍ أخر.

فقالت: ما هو؟

قال لها: ستعلمين ولكن أصبري، فدخلت مرمرة بالماء متمنية له الشفاء.

قالت إيثار أصبر على ماذا؟ قال لها اصبرى ولا تكوني كصاحبتك يُحركك الإلحاح والفضول.

فقالت له: هكذا إذًا؟

فقال: اصبرى ولا تُلحي.

فقالت: للعلم من الوارد جدًا أن أرفضك بالكلية وأريح رأسي.

فقال لها: عمي موافق ولقد وافقتي ولا مجال للتراجع.

فنظرت له محدقة وقالت: أنا وافقت؟!

قال لها: نعم؟

قالت: متى؟!

فقال: بالحديقة عندما تحسستي رأسي وصدمك دمي.

فاحمرت خجلًا وقالت: أنا..

فقاطعها وقال: في المرات القادمة حاولي أن تخففي يدك قليلًا فقد ألمتني فوق ألمي.

فقالت له ضاحكة: هل تنتوي السقوط مجددًا.

وقالت مستغربة: لكنك كنت فاقد الوعي!

قال: لا لكنني لم أستطع التحرك جراء الارتطام فقط.

قالت: إذًا كنت تمثل أنك مصاب؟

فقال: أقسم أنكِ بلهاء كصاحبتكِ.

أمثل ودمي خضب يداك؟!

سيزوجونى لبلهاء، ابتعدي ابتعدي أريد الخروج.

فقالت له ساخرة: اجلس اجلس ولا ترهق نفسك كي لا تُلقي تعبك على بلهي.

وأردفت؛ وأجبني متى وافقت؟ فقال لها: وافقتي بشعورك بي وخوفك عليَّ وسقوطك على الأرض لدرجة أن

صوت هبوطك هزني كان أشبه بحط الرخ على عشه.

فوكزته وقالت: أنا رخ؟!

فقال: أخف من الرخ وأثقل من الأدهم.

فقالت له: أثَّر السقوط على عقلك، فقال لها؛ بل تأثير كلمات وصفك لي على قلبي أشد من تأثير ألف سقوط كهذا.

فقالت متلعثمة: لا تُغير مجرى الحديث وقل لي ما الذي سأعلمه وتوصيني بالصبر؟

فقال لها: أين العشاء؟ كدت أموت جوعًا في بيتكم.

فأردف هامسًا لها وقال: اصبري.

أخفت خجلها عنه بقولها: ألست بجائع؟ سآتي لكِ بالطعام.

فقال لها: لما هل أنا مريض حتى تأتيني بالطعام مكاني فنهض سريعًا لكن اختل التوازن وسقط مرة أخرى.

فأمسكت به وقالت: ليس المريض وحده من يُخْدَم، وتركته وذهبت لتستعجل مرمرة.

جُهز لهم العشاء، وجلسوا جميعًا، أكل الجميع عادا سليم فاكتفى بالشراب، وشكر عمه خالد واستأذنه في الذهاب فأذِن له، فأخذ سليم سارة متجهًا للخارج

فسقط من أعلى السُلَم.

فقالت سارة: ماذا بك؟

أأقسمت على عدم الخروج من هنا؟ هذه المرة التوى كاحله بما يستحيل استمراره في السير، فذهب طريف

للنيسابوري مجددًا، ولَّما راه قال له مازحًا إصابتين في يوم واحد، عَمِلَ اللازم ومضى، فضحك خالد له قائلًا: قلت لك ابقى بإرادتك، والآن ستبقى رُغْمًا عنك.

ذهب طريف لبيت السيد عمر حاملًا رسالة منه فحواها أنه يُريد سليمًا الليلة كي يقوما بتنسيق الأعمال المستقبلية بما أنه سيسافر بعد أيام وستبقى سارة مع ابنته الليلة فقط.

أرسل خالد هذا المكتوب بهذه الصيغة كي لا يقلق عمر على ولده إلى أن يراه.

الفصل السابع

استقبال باهر

الفصل السابع
استقبال باهر

وفي صباح اليوم التالي تناول عمر إفطاره وذهب لبيت خالد، فرحب به وعلم منه ما حدث، فأدخله خالد غرفة مبيت سليم فوجده ممدَّدًا، فسلم عليه وهمَّ سليم بالنهوض لأبيه ولكن لم يستطع فامره أباه بأن يستريح ولا يقف.

وجلس الرجال معًا لساعة تقريبًا يتحدثون عن أمور العمل وما سيسري بعد ذلك فيه، ثم أخذ خالد صديقه للحديقة تاركين سليم يرتاح قليلًا، فالدواء الذي وُصِفَ له يجعله خاملًا بعض الشيء.

أما سارة وإيثار فقد استيقظا لتوهما فبعد الحديث والضحك قررا النزول لتناول الإفطار فارتدت سارة رداءًا رماديًا مُحلى بنطاقٍ وردي مُتشحة بوشاح متطابق ولون النطاق.

أما إيثار فارتدت رداءًا ثلجي بنطاق فضي مُطعم بأحجار الأوبال المتراصة مُتشحة بحجاب أزرق كزُرقة صفحة السماء الصافية.

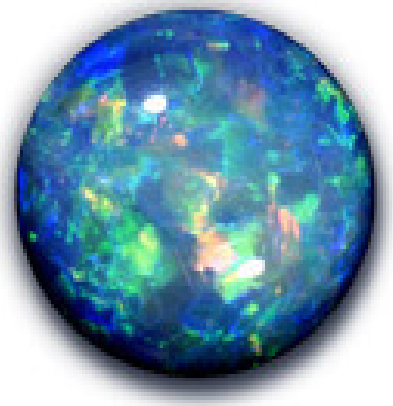

فنزلا وسلما على الجميع، وتناولا إفطارهما، وسألت سارة عن سليم، فسألت إيثار أمها عنه.

فقالت: كان مستيقظًا مع أباك وعمك منذ قليل، فدخلت سارة تطمئن عليه فوجدته مستيقظًا وفي يده ورقة يرسم عليها شكلًا هندسيًا بديعًا.

فقالت له: كيف حالك الأن يا أخي؟

فقال: على ما يرام.

قالت له: إيثار بالباب تريد الدخول، فأذِن لها. فقالت: صباح الخير.

فرد قائلًا: صباح الخيرات.

فسألته كيف حالك اليوم؟

قال: على ما يرام إنني بخير.

فسألته هل تناول إفطاره؟ فأجاب نعم، وشكرها على حسن ضيافتهم، فقالت على الرحب والسعة ولكن الضيافة للضيوف وما أنتم بضيوف.

فردت سارة وقالت: وهل للضيوف المبيت والتردد بهذا الشكل.

فقالت لها إيثار اخبريه وأشارت لاخيها.

فقال لهما: انتظرا حتى أفيق مما أنا فيه لأريكما كيف تتبادلان النظرات والضحكات على ما أقول، فضحكا.

وقالت سارة: بحالتك هذه كيف ستسافر؟

فقال لها: بما أنكِ بألف رجل فلتسافري أنتِ، كي أرتاح من ثرثرتك من جهة، ومن أخرى كي يرى طارق أنه اختار

من لا تتخير عن صديقه.

فأمسكت بوسادة تريد إلقائها عليه فأمسكتها إيثار وقالت لها:

افعليها عندما يطيب إن استطعتِ.

فردت سارة أهلًا قد بدأنا، فضحك سليم ولم تفهم إيثار. فرد سليم على سؤال سارة بأنه إن لم يطب بنهاية الأسبوع سيسافر أباهم لمباشرة العمل ويتركه هنا ومن المحتمل أن يأخذها معه.

فتهللت سارة وقالت ابقى هنا فالسفر لك مضر، فردت إيثار لم تتركيني من يوم أن رأيتك، فقالت بالتأكيد لن أغيب. فقال لهما:

أجزمتم بأنني سأظل طريح الفراش.

فردت إيثار: لا لم نقل ذلك.

وقالت سارة: لا تكن طريح الفراش لكنني أود السفر. وظلوا في نقاش هكذا لفترة.

ثم استأذنت إيثار وبعدها بقليل خرجت لها سارة، تُنزهها في الحديقة مُستمتعين بوقتيهما.

ومر يومان وسليم كما هو، وفي اليوم الثالث بدأ يسير قليلًا ومن هذا اليوم عاد إلى بيته شاكرًا عمه وزوجته وبالطبع إيثار، وبنهاية الأسبوع أصبح سليم على ما يرام وجهز نفسه للسفر، وصعد قُبيل سفره للمرتفع ووضع بيتين للطيور الأول مكان الزهرة والأخر على جزع شجرة، وسلم على الجميع وسافر، وبعدها صعدت الفتاتين للمرتفع فوجدا هدية سليم فرحا بها.

ولكن إيثار كان يتردد في ذهنها قول سليم اصبري ولا تعلم ما يُرتب له، فجلسا متهللين يتجاذبن أطراف الحديث على سليم وطارق، ووصفت سارة طارق بأنه يُشبه أخيها سُليمان كثيرًا حتى في طباعه، انقضى اليوم في الحديث والمزاح، وذهبت كل واحدة منهن على بيتها، فعندما وصلت إيثار للبيت أرسلت طريف للمرتفع حتى يأتي بالهدية وأن يُرسل الأخرى لسارة، وبالفعل نفذ طريف ما طُلب منه، ووضعت إيثار البيت بشرفة غرفتها، تتأمله فارغًا كلما دخلتها، وفي مرة

رأت شيئًا يلمع بداخله فحاولت إخراجه ونجحت وجدته مكتوبًا بأنبوبة نحاسية صغيرة كالتي تُربَط بأرجل الحمام، مخطوطًا فيها فلتبحثي أكثر.

ظلت مُتحيرة، تبحث عن شيء لا تعرفه، تروح وتأتي ولا تجد شيئًا، ظلت هكذا ثلاثة أسابيع كاملة، وفجأة ضغطت على قاع البيت فإذ بشيء يُفتح، فوجدت ما لم تكن تتوقعه، دبوس بهي مرصعٌ بياقوت أحمر زهي ملفوف بحرير وردي يتطابق مع العقد الذي جلبه لها عندما أتى.

دخلت عليها سارة، فوجدتها تضع الدبوس بشعرها.

فقالت لها: سليم؟

فقالت: أين؟

اعتقدت أنه يقف بالباب ولكن كيف يأتي لبابها هل جُنْ؟

فقالت لها سارة: ها هو.

وهي تُشير على رأسها، فردت إيثار وهي تسحب دبوسها من شعرها، نعم إنه سليم.

فردت سارة: أفقير كي لا يأتي لك بتاج ما هذا الذوق.

فقالت إيثار ألا تلاحظين بأنك تتكلمين عن أخاكِ.

فقالت سارة: أعلم ولكن لو لم يأتي لكِ بتاج لا تقبلي به كزوج.

فقالت لها إيثار باسمة: اصمتي صدق سليم فيكِ ثرثارة أنتِ يا سارة.

فقالت لها: هكذا؟

قالت: نعم.

فأردفت سارة: إذًا لن أخبرك بما كنت أتية لأجله.

فقالت إيثار: هاتِ ما لديكِ.

فقالت سارة: لا، لن أتفوه بحرف، حتى تمدحيني.

فظلوا في شد وجذب حتى قالت سارة: أقسم لن أنطق حتى تمدحيني وسأكتب خلفكِ كي أُريها لسليم، ظلي هكذا حتى يضيع الوقت.

فقالت إيثار:

أسارة سر بقدومها قلبي من بهائها تجمدت الجُمَلِ

تراها كرؤية زخرف الدنيا وفي وجهها تزهوا العِبَرِ

تكلمي و إلا هجوتك فقالت سليم بالأسفل، فلم تعيرها إيثار اهتمام لأنها تعلم أنه لن يأتي هذه الفترة.

فقالت: سأنزل واتبعيني.

فقالت لها: كيف هذا؟ وهو القائل بأنه سوف يذهب شهر

وربما أكثر.

فقالت لها: أقول لكِ أنه بالأسفل مع أبي وسليمان.

فقالت إيثار: كيف هذا؟ الإثنين معًا؟ وذهبت تتحسس جبينها علها تكون محمومة.

فضحكت سارة وقالت لها: مجنونة.

وأردفت أنا بالأسفل وتأخري كما يحلو لكِ.

أقول لكِ لا نريد رؤيتك اهبطي بعد انصرافنا، وجودك لا يلزمنا بالأسفل.

اندهشت إيثار مع تهللها بالخبر وتجهزت بالفعل وارتدت ثوب بديع تتحلى بالعِقد الياقوت وزرعت بأعلى حجابها الدبوس، فلو صدق الوصف لوصفوها بكونها الأميرة التي لا تُضاهيها في الجمال أميرة.

نزلت ووجدت بالفعل ما قالته سارة، عمها وسليم وسُليمان، فاستقبلوها وكأنها هي الضيفة، فمرت الليلة

والجميع في قمة السعادة وانتهت وانصرفوا، وصعدت إيثار لتجد على سريرها صندوق كبير، ارتعبت من فتحه في بادئ الأمر، ولَّما علمت أنه من سليم، فتحته وإذ بها تجد تاج لم ترى في حياتها أجمل منه

موضوع على ثوب عُرس بديع، فذهبت إيثار لوالدتها، فوجدتها على علم بما في غرفتها.

فقالت لها: سليم وأباه كانوا هنا من بعد الظهر وأنتِ بغرفتك ولم نستدعيكِ فقد رتبوا لزفافك أول يوم في الشهر الجديد وباركت لها متهللة فرحة موردة وقبلت جبينها.

وإيثار تسمع ولا تتحدث وكأنها تحلم؟ ثم ذهبت لغرفتها في صمت، وعادت مجددًا لوالدتها وقالت لها، أمَا لصندوق المتاع رأي؟ فردت والدتها هل ترفضية؟

فقالت: لا لم أقل ذلك؟

ولكن كيف يتم كل ما قلتيه لي دون علمي؟ فقالت لها والدتها: إذ كنت رافضة له فلتخبريني الآن؟ فأردفت إيثار لم أقل أني أرفضة؟

فقاطعتها والدتها: إذًا اذهبي فلا داعي لطول الوقت وكثر الجدال.

الفصل الثامن

فرحة وأمل

الفصل الثامن
فرحة وأمل

لم تستطع إيثار النوم وظلت مستفزة مستيقظة إلى الصباح، مرَّ الصباح بصورة عادية جدًا ولكن دون إفطار، جُهِزَت لها الفيروز وانطلقت بها، وهي تُحدث نفسها، ها أنا صندوق متاع يرتبون فيه أشيائهم، انطلقي يا فيروز ولن أوقفك، هيا أوجعي الريح وأريني ما في جعبتك أنتِ الأخرى، أصبحت لا أستوعب شيء مما يُفعل.

وبالفعل انطلقت الفيروز وظلت تركض إلى أن أدخلتها الغابة وتوقفت عند مكان ساحر خلاب،

نظرت ومن فرط الجمال تجمدت، نسيت كل ما هي مُستفزة لأجله، ولم تتذكر إلا سليم، وسليم فقط، ظلت هناك لبضع ساعات، تُحدث نفسها عنه وعن كرمه وحُسن خلقه لكنها تعود وتعاتبه لكثرة مفاجأته المُربكة.

وفي نفس الوقت صعدت سارة للمرتفع لتخبر إيثار بأن طارق سيأتي بعد أسبوعين، ولكنها لم تجدها، فذهبت لبيتها وبعد السلام على زوجة عمها وسؤالها على إيثار علمت أنها

أخذت الفيروز وصعدت للمرتفع، فلم تخبرها سارة بأنها لتوها أتية من المرتفع ولم تجد إيثار ظنًا منها بأنها لا تزال في البيت، فأوهمتها بأنها ستلحق بها إليه، ولكن ذهبت لبيتها تُخبر سليم، فلم يولي للأمر أهمية فالمكان الوحيد الذي اعتادت على الصعود إليه هو المرتفع.

ولكن ذهب لعل سارة ركزت ناظريها على الصخور دون الشلال وما حول المرتفع، فذهب هو ولم يجدها في أي مكان كان، فذهب لبيتها وأخبرهم بما حدث، وسأل زوجة عمه هل هناك ما يضايقها؟

فردت وقالت: لا بالعكس كانت الليلة لطيفة ومرت على أفضل ما يرام، فاستأذن أن يتفقدها احد بالبيت عمومًا وبغرفتها خصوصًا قد تكون عادت وغالبها النوم فغلبها، تفقدوا البيت والحديقة ولم يجدوا لها أثر هي والفيروز.

عاود سليم أدراجه للبيت وأمتطى أدهمه وشق به الريح، فصعد إلى البَلَسان مجددًا ولم يجدها فوسع من دائرة بحثه

لحدود الغابة ودخلها، وفجأة لم يستجب الأدهم لتوجيه سليم له، الامر الذي أغضب سليم وجعله يصرخ فيه أن انطلق حيثما أريد لا حيثما تريد أنت! ولم يستجب أيضًا لهذا فأوجعه سليم فصهل صهيلًا أفزع الطيور على أشجارها، سمعته

الفيروز فصهلت، حينها فقط أيقن سليم أنه على مقربة منها، واتجه حيث أراد فرسه، وبالفعل وجدها تجلس هناك غير منتبهة ولا عابئة بشيء سوى الصفحة التى أمامها وكأنها لوحة فنية متقنة الخطوط بشجرها وجدولها وغزلانها وسمكها.

فاقترب السليم وقال لها: قتلني البحث فأفزعها.

وقالت: أنتَ؟

فقال: وهل كنتِ منتظرة غيري.

فقالت: لو بيدي لقطفت رأسك بسيف بتَّار.

فما كان منه إلا أن قال لها بغضب: ثانيةً يا ايثار انتِ ثانيةً؟ هاتِ ما عندكِ، خيرًا، ماذا فعلتُ لسموكم الكريم؟ فبكت.

قال لها: أريد أن أفهم، هل ما أرسلت أغضبكِ؟ أماءت بالنفي.

قال: هل وصلكِ عني ما أغضبكِ؟

ومجددًا أماءت بالنفي، قال ماذا حدث إذًا؟

فقالت له: أصبحت بنظركم صندوق متاع يُنقل حيثما يشاء الناقل.

فقال لها: ومن قال ذلك؟

قالت: أنتم جميعًا بالأمس اتفقتم على ذلك، ففهم مقصدها وخَلُصَ إلى تهدئتها.

وقال لها: قولًا واحدًا وأرجوكِ لا أريد فيه جدالًا.

هل هناك ما تعترضين عليه غير ذلك؟ فقالت لا، فقال إذًا موافقة، فقالت: لم أقل أبدًا بأني رافضة.

فقال لها: إذًا ما المشكلة؟

فقالت: لا مشكلة.

فقال لها: يا عنيدة تُخالفين الدرب دومًا، أُجهز لك المفاجأت وأُرتبها كما يرتب الخادم صحون الطعام، ولم أجد منكِ سوى الكدِ والنكدِ، أُقسم لم تجرأ امرأة أن توجه لي عُشر ما وجهته!

فقاطعته وقالت: وطالما... فقاطعها بغضب، عندما أنتهي انطقي.

فبكت، فظل ينظر إليها وبعد ما كان في قمة غضبه صار يبتسم ويضحك إلى أن كفت عن البكاء وقالت له: أجُن جُنونك؟

فقال لا ولكن سوف يذهب عقلي بفعلك وعِنْدِك، لم أرى في حياتي من تبكي وتزداد جمالًا سواكِ.

فابتسمت وهي تحاول إخفاء ابتسامتها ولم تقوى فضحكت، وقال لها لما جئتي إلى هنا؟ فقالت أتت بي الفيروز، لم أكن أعلم طول هذه السنون أن الغابة بها هذا المشهد الخلاب، فقال لها عندي ما هو أجمل، فقالت: هنا؟

فأومأ بالإيجاب، فقالت خذني على حيث تذكر، قال لها في الغد، الأن نذهب نُطمئن عليك من بالبيت، فامتطت فيروزتها وإذ بسليم يمسك لجامها بيد والأخرى لجام جواده ويقول له، أوجعتك يا صديقي فلا تؤاخذني، وقال لها بسببك رأى

غضبي وهو المطيع الحليم، فخجلت ولم تنطق حينها، ووصلا البيت، واطمئنوا عليها، وذهب سليم لبيته.

صعد أبيها لغرفتها وعنفها على أسلوبها مع والدتها، وعلى تسببها في قلق الجميع عليها، ووصف تصرفها بالتصرف الأهوج، فاعتذرت ومر اليوم مرور الكرام.

وفي الصباح أتتها سارة تطمئن عليها وتُخبرها بما كانت تنتوى أن تخبرها به بالأمس، وقالت مستطرده لحديثها لقد بعث طارق هذا لي مع سليم فقد رتبوا أن يكون زواجنا معًا، فرحت إيثار بذلك وأثنت على هديتها، ومازحتها قائلة، أدبوس هذا أم ثُريا للردهة، فوكزتها سارة وقالت لها: هذا ذوق رفيع لم نراه من سليمك، فأردفت إيثار قائلة؛ رفيع؟ سليمي جبل لا يرى إلا السماء بنجومها، وبالتالي لن يجلب لي أقل مما أتى، ظلا هكذا كل واحدة منهما تدافع عن رُقي ذوق خطيبها إلى أن استسلمت سارة وقالت لإيثار، عنيدة كما يقول

أخي وأزيد عليه بأنكِ غليظة، فردت إيثار لو كنت كذلك فما كنتِ ستبكين ضحكًا كالآن.

ومر يوم أخر، ويوم يجر أخاه ولم يظهر سليم فقط يقابل عمه خارج البيت ويرسل سلامه لزوجة عمه وكفى، فسألت إيثار أخته عنه فقالت مشغول في هذه الأيام، أقسم أنه يرتب لشيء، أعرف أخي فسيجعلنا نُزْرَعُ أماكننا دون حراك، كما تثبت الجذور شجرتها.

وظهر سليم قبل زواجهم بأيام، وكادت ان تنفجر غيظًا منه، فبادرها بقوله؛ لا تنطقي قبل ان تتكحل عيانك بما فعلت.

وبالفعل التزمت الصمت وذهبت معه هي وسارة وسليمان، لمكان بين المرتفع والغابة كأنه جيب منفتح على النهر.

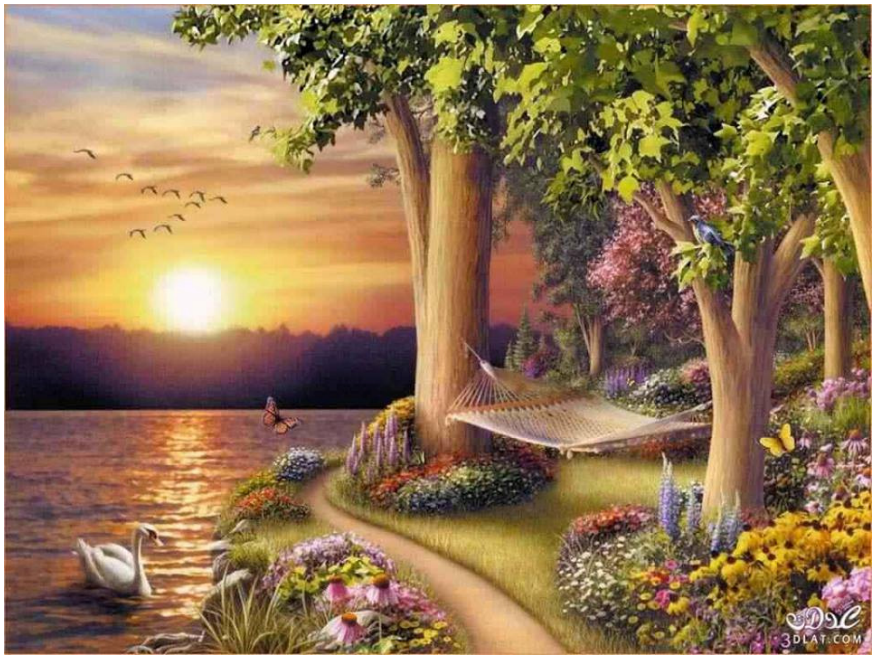

قام عليه سليم وسليمان طيلة الأيام الماضية لينتهي إلى هذا المشهد، مشت سارة وإيثار على طريق حرير مُلقى عليه زهرات صغيرات، وقال سليم هذا مكان لم أُعرف به أحد وقد خارت قواي في تهيئته، لتكوني أول من يراه، وسوف يكون هذا هو مكاننا دومًا عند التنزه، فقاطعته وقالت له: ومما يشكو المرتفع، فرد مبتسمًا المرتفع فقط عندما نريد الخلاف، هنا لا خلاف ولا جدال ولا بكاء، لا بكاء يا إيثار مفهوم، فابتسمت و أماءت بالقبول، وشكرت سليمان على معاونته أخيه لأجلها، وأردفت له ولسارة انا لا آمن من لطف سليم هذه الفترة هل هذا طبيعي أم أصابه تغيير؟ فردت سارة، لا ليس بطبيعي، فقد جُن جُنونه، أوقفي زواجك به كي تحافظي على ما تبقى من عقلك، فقال سليم أين أنت يا طارق كي تشاهد بأم عينيك زوجتك المستقبلية وسلاطة لسانها، فقالت: أنا سليطة اللسان يا أخي؟!

قال سليم ندع طارق يجيب عن هذا السؤال، فقالت مازحة عندما يأتي أخبره وسنرى، أنا مُجزمة من الآن بأنه سيُنشد فِيَا الأشعار ويجوب بها البلاد، فقال سليمان اتركها تهزي.

فقال سليم: لا ولما نتركها فلنعالج الأمر الآن ولنسأل طارق ويجيب.

فضحكت وقالت: فقدا عقلهما.

فسمعت من يقول لها :من الذي فقد عقله هل تقولين هذا على من كان طيلة عمره راجح العقل سليم النية؟

فالتفتت وإذ بطارق خلفها، فما كان بها إلا أن فقدت الوعي، وأخذت إيثار وسليم يحاولان معها حتى تستفيق، ولما أفاقت قالت لسليم دائمًا أقول بأنك مجنون كيف لا تُنبهني بأنه أتى.

فرد طارق ولم ينبهك وأنت تعلمين؟

قالت: أعلم ماذا؟ أنا لا أعلم شيء.

فقال لها: سأخبرك في وقت لاحق.

هل ببيتكم طعام أم نصطاد ونتصرف بأنفسنا.

فنظرت لإيثار وقالت: سليم وأصحابه دائمًا جوعى، هيا يا بنيتي نُطعمهم حتى لا يُلقوننا للوحوش البرية.

فهمس لها طارق وقال: ثرثارة لازلتِ ثرثارة ولكنك كزيت القنديل هو يشتعل بنار وأنتِ لا تشتعلي إلا بالكلام.

فتوردت خجلًا ولم تنطق بكلمة إلى اليوم التالي، فكانت تكتب أو تُشير كلما أرادت الحديث.

وجاء يوم زفافهم، فترتيبات الأعراس تختلف بالكلية عن ترتيبات الاحتفالات والمناسبات الأخرى.

اتشحت سارة يومها برداء مخملي أخضر ملكي مطرز بالكامل بخيطان فضية وحبات لؤلؤ بحرية شابكة بشعرها دبوس طارق الطارق كما وصفته تتدلى حلياته على جبينها.

وبالنسبة لإيثار فقد ارتدت الثوب الذي أهداه لها سليم

فكان حريرًا ذهبيًا مطرز بأحجار ياقوت صغيرة تتجلى في الثوب كأنها النجوم في صفحة السماء، ووضعت تاجها كأنها الملكة يوم تتويجها.

جلسا متجاورين، أبهرن كل من حضر، وكعادة النساء لا تسلم جلساتهن، أخذن يسألن وتجيب والدة إيثار عن ابنتها وعن سارة، وظلت إيثار وسارة تُتابعن النسوة بصمت مُطبق أو يهمس لبعضهن بأشياء تُثير ضحكاتهن، انقضى اليوم، وجلست الأسرتين ببيت خالد يتضاحكوا ويتحدثوا إلى أن جاء وقت رحيل عمر، وبالفعل ذهب عمر وسليمان وطارق وزوجته، وبطبيعة الحال كان سيذهب معهم سليم وزوجته، إلى أن بادر خالد عمر بأن البيت الكبير سيُصبح فارغًا دون ابنتهم فاستأذن منه بقائهم، فرد عمر وقال: هو ابنك وله بيتان يقيم حيثما أراد، فامتثل سليم لرغبة عمه، وانصرف الجميع،

وبقت إيثار وسليم بالأسفل وكانت المفاجئة أن تَجَهَز لهما الجناح الرئيسي للبيت المطل على البحر، فقالت إيثار عندما رأته أفعلتم كل هذا ونحن تحت سقف بيت واحد دون علمي، فهمس لها سليم، كيف يحدث هذا؟ أأنت صندوق متاع، فانفجرت إيثار ضَحِكًا، وقالت أظنني كذلك

دخلت إيثار جناحها فطار عقلها من بهاء ما ترى فقد رأت الجناح مُبَدَل بالكُليةالثُريا تغيرت، وأصبحت الأعمدة مرمرية بتيجانٍ نحاسية، حتى نقوش السقف الجصية ففي زواياها أُضِيفَ لها عناقيد العنب الحمراء والذهبية، غيروا فيه كل شيءٍ بالكُلية.

قضى سليم وإيثار حياة هادئة خالية من الخلافات نسبيًا وقد رُزقا بعد سنتين بُعمر الصغير يُشبه أباه بالكلية، لكن طباعة كطباع أمه، متمرد عنيد متطلع لما بعد الباب الكبير.

أما سارة فقد رُزِقَت بنور الصباح بهية كوالدتها، وتزوج سُليمان فيما بعد بابنة عمه، استمرت الحياة بالجميع على أساس الوحده فهم أسرة كبيرة لا مجموعة أسر متفرقة في بيتين.

وفى الأخير ختمت جدتي حكايتها وهي شاردة الذهن مُبتسمة واضعة يدٍ على أخرى ناظرة للمدفأة، تركناها في هدوء ومضينا متأملين البيت القديم بزخارفه المميزة.

مرتفع البلسان

فهرس المحتويات

الفصل الأول: الصعود إلى البَلَسان ٦

الفصل الثاني: المغامرة الكبرى ١٤

الفصل الثالث: غضب وكبرياء..... ٢٣

الفصل الرابع: اعتذار ٣٦

الفصل الخامس: اعتراف وخجل ٤٨

الفصل السادس: حزن ورحيل..... ٦٠

الفصل السابع: استقبال باهر ١١٤

الفصل الثامن: فرحة وأمل ١٢٦